

جزيرة سُقْر الأندلسية (المكان والانسان) في الأدب الأندلسي

للدكتور صلاح جرار
الجامعة الاردنية

مقدمة

الباعثُ على هذه الدراسة ، أن جزيرة سُقْر - على ضيق مساحتها وبعدها عن قلب الأندلس - شهدت أيام الحكم الإسلامي نهضة أدبية وعلمية نشطة ، قلَّ أن تشهدها بقعة جغرافية مماثلة ، وقد نشأ بأرض تلك الجزيرة من أعلام الأدب والفكر الجُمُّ الغفير ممَّن شهدَتْ مصادرُ التراث الأندلسيَّ بشهرتهم ؛ فهي مسقط رأس ابن خفاجة وأبي المُطَرِّف بن عميرة وأبي طالب عبد الجبار وابن مرج الكحل وغيرهم من صدور الأدباء الأندلسيين . ولعلَّ هذه الدراسة ، عن جزيرة سُقْر ، تعين على تفسير ذلك النشاط الأدبي والعلمي الملحوظ الذي شهدته أرضها ، وتسهم في الكشف عن بعض الظواهر الأدبية التي برزت في أعمال أدباء الجزيرة في الموضوعات والأساليب .

جزيرة سُقَر : الاسم والموقع والملاح الخاصة

أ- الاسم :

تختلف المصادر العربية في الصورة التي يُضَبِّطُ بها اسم هذه الجزيرة ، فبعض هذه المصادر تجعله «سُقَر» بضم الشين وتسكين القاف^(١) ، وبعضها تجعله سُقَر ، بفتح الشين وسكون القاف^(٢) ، وبعضها الآخر تجعله سُقَر ، بضم الشين وفتح القاف^(٣) . وورد اسم الجزيرة في كتاب المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة

(١) وصف ابن خلكان جزيرة سُقَر بقوله : «سُقَر - بضم الشين المثلثة وسكون القاف والراء - وهي بُليدة بين شاطبة وبلنسية . انظر : ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٣م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٨ ج ، حققه الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ج ١ ، ص ٥٧ . وضبط صفي الدين البغدادي اسم هذه الجزيرة بقوله : «جزيرة سُكْر بضم الشين المعجمة وسكون الكاف ، جزيرة في شرق الأندلس ، ويقال جزيرة سُقَر» انظر : صفي الدين البغدادي ، عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م) ، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣ ج ، تحقيق وتعليق : علي محمد البجاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٤ - ١٩٥٥ ، ج ١ ص ٣٣٢ . ومن المصادر التي ضبطت الاسم بضم الشين وسكون القاف رايات المبرزين لابن سعيد المغربي ، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد أيضاً (انظر : ابن سعيد المغربي ، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٨م) ، رايات المبرزين وغايات المميزين ، تحقيق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ، ص ١٢١ ؛ ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ٢ ج ، حققه وعلق عليه الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ ، ج ٢ ص ٣٦٣ وانظر كذلك : E. Levi-Provençal: La «Description de L'Espagne» d'Ahmad al-Razi, Al-ANDALUS, Vol. XVIII, 1953, p.71. والموسوعة الإسلامية ، مادة :

. DJAZIRAT SHUKR

(٢) انظر : ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) ، معجم البلدان ٥ ج ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ج ٣ ص ٣٥٤ ؛ الفيروز أبادي ، القاموس المحيط مادة (سُقَر) ؛ الزبيدي ، تاج العروس ، مادة (سُقَر) ؛ ابن دحية الكلبي ، ذو النسيب أبو الخطاب عمر بن حسن (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م) ، المُطَرَّب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق : الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد الحميد والدكتور أحمد أحمد بدوي ، دار العلم للجميع ، بيروت ١٩٥٥ ، ص ١١١ .

(٣) انظر : ابن الدلائي ، أحمد بن عمر بن أنس العذري (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٨م) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥ ، ص ١٧ .

«شوقر»^(٤) . وورد الاسم بالقاف والكاف في مُعْجَم البلدان لياقوت ، ومراصد الاطلاع
لصفى الدين البغدادي^(٥) . ويسمىها عبد الواحد المراكشي في كتاب المعجب «جزيرة
الشُّقْر»^(٦) .

ويسمى ابن خفاجة في بعض شعره نهر شقر الذي تُنسبُ إليه الجزيرة
بالمُشَقَّر ، فمن ذلك قوله من قصيدة :^(٧)
وَأَنْدُبُ عَهْدًا بِالْمُشَقَّرِ سَالِفًا وَظِلُّ غَمَامٍ لِلصِّبَا قَدْ تَقَشَّعَا
وقوله من قصيدة أخرى :^(٨)

وَتَنْدُبُ عَهْدًا قَدْ تَقَضَّى بِرَامَةٍ
وَوَكْرًا بِأَكْنَافِ الْمُشَقَّرِ خَالِيَا
ونجد هذه التسمية أيضاً في شعر أبي المطرف بن عميرة - من أدباء جزيرة شُقْر - إذ
يقول في بيت من إحدى قصائده :^(٩)

وَيَنْدُبُ عَهْدًا بِالْمُشَقَّرِ فَاللَّوَى

وَأَيْنَ اللَّوَى مِنْهُ وَأَيْنَ الْمُشَقَّرُ؟!

وقد يعود الاختلاف في صورة اسم الجزيرة إلى اجتهادات المحققين والناشرين
للمصادر التي ورد هذا الاسم في صفحاتها ، وربما كانت هناك عوامل أخرى لهذا
الاختلاف مثل الاختلاف في الاسمين اللاتيني والإسباني للجزيرة ، إذ إن اسمها في

(٤) ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك (ت ٥٩٤هـ / ١٢٠٠م) ، تاريخ المن بالامامة على المستضعفين (السفر الثاني) ،
تحقيق عبد الهادي التازي ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م ،
ص ٤٩٦ ، ٤٩١ .

(٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ح ٣ ص ٣٥٧ ؛ صفى الدين البغدادي ، مراصد الاطلاع ح ١ ص ٣٣٢ .

(٦) عبد الواحد المراكشي ، محيى الدين عبد الواحد بن علي التميمي (ت بعد ٦٢١هـ / ١٢٢٤م) ، المُعْجَب فِي
تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ،
المغرب ، الطبعة السابعة ١٩٧٨ ، ص ٥١٨ .

(٧) ابن خفاجة ، أبو اسحق ابراهيم بن أبي الفتح (ت ٥٣٣هـ / ١١٣٨م) ، ديوان ابن خفاجة ، تحقيق الدكتور سيد
غازي ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ ، ص ٥٦ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(٩) محمد بن شريفة ، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره ، منشورات المركز الجامعي للبحث
العلمي ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣١ .

اللسان اللاتيني Sucro واسمها في الإسبانية Jucar. (١٠)

أما تسميتها بالمشقر في شعر ابن خفاجة وابن عميرة ، ابني جزيرة سُقَر ، فهي من قبيل التمثّل للشعر العربي القديم في ذكر الأماكن المشرقية ومنها المشقر. (١١) وفي تسمية جزيرة سُقَر بالمشقر يمتزج الحنين إلى الشرق بالحنين إلى أرض سُقَر ، ويمتزج الماضي القريب بالماضي البعيد ، وتلتقي سُقَر بالمشقر بحروفهما وبإحوائتهما وبإشعاعهما في وجدان أدبيّ جزيرة سُقَر .

وإذا كان الخلاف على التسمية بين سُقَر (بفتح الشين) وسُقَر (بضمّ الشين) فإننا نرجّح ضبطها بضمّ الشين للأسباب التالية :

- ١ . أن هذا الاختلاف قد وقع فقط في المصادر غير الأندلسية ، بينما تكاد المصادر الأندلسية تُجمِع على جعلها بضمّ الشين .
- ٢ . أن الاسمين اللاتيني والاسباني للجزيرة يبدآن بحركة الضم .
- ٣ . أنها وردت في أدب ابن خفاجة وابن عميرة وغيرهما من أدباء جزيرة سُقَر نفسها بالضمّ .

ومنى انحصر الخلاف على التسمية بين سُقَر (بتسكين القاف) وسُقَر (بفتح القاف) فإننا نحتكم إلى الشعر الذي وقع فيه اسم هذه الجزيرة ، لأن الإخلال في ضبط الاسم في أي بيت وقع فيه يُخلُّ بالوزن الشعري للبيت ، وقد ورد اسم جزيرة سُقَر بتسكين القاف في جميع الأبيات الشعرية التي ورد فيها هذا الاسم ، فقد ورد غير مرة في شعر ابن خفاجة ، فمن ذلك قوله في بيت من إحدى قصائده : (١٢)
بَيْنَ سُقَرٍ وَمُلْتَقَى نَهْرَيْهَا حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَا الْأَمَانِي عَصَاهَا

(١٠) الموسوعة الإسلامية ، مادة : AJAZIRAT SHUKR .

(١١) يختلف الجغرافيون المسلمون في تحديد مكان المشقر ، فيجعلها الحميري في «الروض المعطار» قصراً بالبحرين ، وقيل هي مدينة هجر ، وقال ابن الأعرابي إنها مدينة عظيمة في وسطها قلعة ، وذكرها امرؤ القيس في شعره إذ يقول : دُوِّنَ الصفا اللائي يَلِينُ المَشْقَرَا (انظر : الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، حققه الدكتور إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٥٦٠) .

(١٢) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٤ ، الروض المعطار ص ٣٤٩ .

وقوله مشيراً إلى أصدقاء له : (١٣)

قَدْ أَنْتَظَمُوا فِي نَحْرِ شُقْرِ قِلَادَةٍ

وَكُلُّهُمْ وَسْطَى فَنَاهِيكَ مِنْ عَقْدِ

وقوله متحدثاً عن إحدى قصائده : (١٤)

نَشَأْتُ وَشُقْرُ دَارِهَا وَكَأَنَّمَا

وَرَدَّتْكَ زَائِرَةٌ مِنْ الزَّوْرَاءِ

وقوله من قصيدة : (١٥)

وَحَنُّ إِلَى شُقْرِ فَخَفَّ عَلَى السُّرَى

يَخُوضُ خَلِيجاً أَوْ يَجُوبُ كَيْباً

ووقع اسم نهر شقر في شعر أبي المطرف بن عميرة ، فمن ذلك قوله : (١٦)

وَكَيْفَ بِشُقْرِ أَوْ بِزُرْقَةٍ مَائِهِ

وفيه لشُقْرِ أَوْ لِزُرْقٍ شَوَارِعُ

وقوله : (١٧)

وَدُونَ شُقْرِ وَدُونَ زُرْقَتِهِ أَزْرَقُ يَحْكِي قَسَاهُ أَوْ أَشْقَرُ

وورد الاسم أيضاً في شعر لأبي القاسم عبد الرحمن بن خرشوش (١٨) ، من

شعراء جزيرة شقر ، حيث يقول : (١٩)

(١٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣٤٧ .

(١٤) المصدر السابق ص ٢٧٥ .

(١٥) المصدر السابق ص ١١٢ .

(١٦) الروض المعمار ص ٣٥٠ .

(١٧) المصدر السابق ص ٣٥٠ .

(١٨) من أعيان جزيرة شقر في زمن المرابطين (المغرب في حلى المغرب ٢/٣٦٦ ؛ رايات المبرزين ١٢٢) .

(١٩) ورد البيت في رايات المبرزين ص ١٢٣ ، لكنه ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي (٣/٣٥٥) منسوباً إلى

أبي عبدالله محمد بن عائشة ، وكذلك أورده الفتح بن خاقان في مطمح الأنفس (الفتح بن خاقان ، أبو النصر

الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبدالله القيسي الإشبيلي ت ٥٢٩هـ / ١١٣٥ م ، مطمح الأنفس ومسرح

التأنس في ملح أهل الأندلس ، دراسة وتحقيق : محمد علي شوابكة ، دار عمار ومؤسسة الرسالة ، بيروت ،

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٣٤٩ .

أيا راكباً يَسْتَعِجِلُ الْخَطْوَ قاصِداً
ألا عَجْ بِشُقْرِ رَائِحاً وَمُغَادِياً

إلى غير ذلك من الأمثلة .

وتُعَرَفُ هذه الجزيرة بعدة أسماء ، هي : شُقْر ، وجزيرة شُقْر ، ومدينة شُقْر^(٢٠)

والجزيرة^(٢١) .

وهناك بعض الدلائل التي توحى بأن اسم «الجزيرة» هو واحد من الأسماء الرسمية كثيرة الاستخدام للبقعة الجغرافية موضع البحث ، وفيما يلي بعض هذه الأدلة :

- ١ . أن الجغرافيين دأبوا على إطلاق اسم «الجزيرة» على المناطق المحاطة بمياه الأنهار^(٢٢) ، كما هو الشأن مع الجزيرة الفراتية وأرض الجزيرة في السودان .
- ٢ . أن المصادر الأندلسية استعملت هذه التسمية كثيراً للإشارة إلى جزيرة شُقْر ، ومن ذلك ما نصّ عليه صاحبُ فرحة الأنفس في قوله : «ومدينة الجزيرة ، ومبتناها على جزيرة شُقْر»^(٢٣) ، وما نصّ عليه ابن حيّان في كتاب المقتبس بقوله : «ثم افْتُتِحَتْ مدينة الجزيرة المنسوبة إلى شُقْر من كورة بلنسية»^(٢٤) ،

(٢٠) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) ، تاريخ ابن خلدون المسمّى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج ٧ ، دار الطباعة الخديوية ، بولاق ، مصر ، ١٢٨٤هـ ، ج ٤ ص ١٦٦ ؛ وأنظر أيضاً : الدكتور لطفي عبد البديع ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب عن كُور الأندلس ومدنها بعد الأربعمئة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ١ ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٨٥ .

(٢١) ابن الأثير ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) الحلة السيرة ج ٢ ، حققه وعلّق حواشيه الدكتور حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣ ، ج ٢ ص ٢٦٧ (الحاشية) .

(٢٢) انظر : أبو عبيد البكري ، عبدالله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ج ٢ ، تحقيق : مصطفى السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، ج ١ ص ٣٨١ .

(٢٣) قطعة من كتاب فرحة الأنفس ص ٢٨٥ .

(٢٤) ابن حيّان القرطبي ، أبو مروان حيّان بن خلف (ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، نشره : ب . شالميتا ، ف . كورينطي ، م . صبح ، المعهد الأسباني العربي للثقافة ، مدريد ، وكلية الآداب/الرباط ، ١٩٧٩ ج ٥ ص ٢٣٨ .

واكتفى ابنُ سعيد المغربي بتسميتها بالجزيرة في موضع من كتابه «القدح المعلّى»^(٢٥) .

٣ . ورد اسمها على هذه الصورة «الجزيرة» في شعر عدد من شعرائها مثل ابن خفاجة^(٢٦) وابن مرج الكحل^(٢٧) وأبي عامر محمد بن الأصيلي^(٢٨) .

٤ . أن الاسم الرسمي الحالي لتلك المنطقة في الإسبانية هو Alcira أو Alzira وهو مأخوذ من كلمة «الجزيرة» بالعربية .

أما كلمة Jucar فهي اسمٌ للنهر الذي تُنسبُ إليه الجزيرة ، ومع ذلك لا نجد في الإسبانية ترجمة حرفية لعبارة «جزيرة شقر» ولذلك لا يقال Alcira de Jucar على سبيل المثال ، فكلمة Alcira تعني شيئاً غير الذي تعنيه كلمة Jucar .

ويبدو لي أنَّ الأندلسيين زادوا كلمة شُقر على الجزيرة تمييزاً لها عن الجزيرة الخضراء أو عن جزيرة الأندلس ، وأصبح اسمها بمرور الزمن - على سعيد التعامل الشعبي فقط - جزيرة شُقر .

(٢٥) انظر : ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن عليّ بن موسى (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٨م) اختصار القدح المعلّى في التاريخ المجلّى (اختصره أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن خليل) ، تحقيق : ابراهيم الأبياري ، إدارة إحياء التراث ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٥٥ (السطر الأول) .

(٢٦) انظر ديوان ابن خفاجة : الصفحات ٦٦ ، ١٢٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٨ ، ٣٤٥ .

(٢٧) هو أبو عبدالله محمد بن إدريس المعروف بمرج كُحل من مشاهير شعراء جزيرة شقر ، شبهه ابنُ سعيد المغربي بالوأياء الدمشقي ، وله شعر في الغزل والمدح ووصف الطبيعة ، وكانت وفاته سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٧م . (انظر ترجمته في : رايات المبرزين ص ١٢٣ ؛ المغرب في حلى المغرب ٢/ ٣٧٣ ؛ لسان الدين بن الخطيب ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلماني (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٥م) ، الإحاطة في أخبار غرناطة ٤ج ، تعميق مسند عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ - ١٩٧٧ ، ج ٢ ص ٣٤٣ ؛ الرعيني ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الاشيلي (ت ٦٦٦هـ / ١٢٦٩م) ، برنامج شيوخ الرعيني ، حققه : ابراهيم شيوخ ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م ، ص ٢٠٨) .
انظر قوله :

أَبَتْ نَفْسِي هَوَى إِلَّا شَرِيشاً وَيَا بُغْدَ الْجَزِيرَةِ مِنْ شَرِيشٍ
(برنامج شيوخ الرعيني ص ١٠١) .

(٢٨) يقول في شكواه من رؤساء جزيرة شقر :

حَلَلْتُ الْجَزِيرَةَ سُخْفاً لَهَا كَأَنِّي خَلَلْتُ بِسِرْدَانِي

(انظر : العماد الأصفهاني ، أبو عبدالله محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) ، خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الرابع ٢ج ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٤ ، ج ٢ ص ٢٣٤) .

ب - الموقع :

تنسب الجزيرة إلى نهر شقر الذي ينبع من المنطقة الجبلية الواقعة شمال شرق مدينة كونكة Cuenca ويصب في البحر الأبيض المتوسط جنوبي مدينة بلنسية ، وتقع جزيرة شقر بين فرعين لهذا النهر ينفصلان ثم يلتقيان قبيل مصبه^(٢٩) .

وعلى ذلك فهي ليست جزيرة بحرية وإنما جزيرة نهريّة ، ولذلك وصفها عبد الواحد المراكشي في كتاب المعجب بقوله «وسُميت جزيرة لأنها في وسط نهر عظيم قد حَفَّ بها من جميع جهاتها فلا طريق عليها إلا على القنطرة»^(٣٠) ، ووصفها ابن سعيد المغربي في كتاب رايات المبرزين بقوله «ليست بجزيرة في البحر وإنما نهريها أحْدَقُ بها»^(٣١) ، كما وصفها ابن دحية في كتاب المطرب قائلاً «وهي جزيرة قد أحْدَقَ النهر بها كما أحْدَقَ بحدقة شقر»^(٣٢) .

ولهذا السبب لم يكن لها طريق بريّ ، وبخاصّة عند فيضان النهر ، يقول صاحب الروض المعطار في حديثه عن جزيرة شُقر إنه قد «أحاط بها الوادي ، والمدخلُ إليها في الشتاء على المراكب ، وفي الصيف على مخاضة»^(٣٣) ، وجاء في كتاب ترصيع الأخبار في وصف الجزيرة «وهي جزيرة قد أحاط بها الوادي من جميع جهاتها ولم يبق لها إلا موضع لطيف يُدْخَلُ منه إلى هذه الجزيرة ، قد صُنِعَ فيه حفير ، وعليها مما يلي ذلك سور ، وباب يُصْعَدُ إليه على درج»^(٣٤) . وفي رسالة بعث بها ابن خفاجة إلى صديقه أبي اسحق بن صواب بالمغرب يقدّم ابن خفاجة سبب انقطاعه عن مراسلة صديقه قائلاً - «... ومما أخلّ بعهد المطالعة أن الجزيرة - حرسها الله - بحيث لا يُسافر عنها ولا يُورَدُ عليها»^(٣٥) .

وتتبع جزيرة شقر لمديرية بلنسية في شرق الأندلس وتبعد عنها سبعة وثلاثين

(٢٩) الموسوعة الإسلامية ، مادة : DJAZIRAT SHUKR

(٣٠) المعجب ص ٥١٨ .

(٣١) رايات المبرزين ص ١٢١ .

(٣٢) المطرب ص ١١١ ، وأنظر أيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان ٥٧/١ .

(٣٣) الروض المعطار/محمد عبد المنعم الحميري ص ٣٤٩ .

(٣٤) ترصيع الأخبار ص ١٩ .

(٣٥) ديوان ابن خفاجة ص ٦٦ .

كيلومتراً إلى الجنوب^(٣٦) ، وتقع في منتصف رقعة طبيعية تعرف بـ «ريبرا» Ribera تشمل الجزء الأسفل من وادي شقر وتمتد من شاطبة (Jativa) جنوباً إلى قطروجة (Catarroja) شمالاً ، ومن البحر الأبيض المتوسط شرقاً وحتى نهر كارثير (Carcer) غرباً^(٣٧) .

وتقع جزيرة شقر على قارعة الطريق إلى مرسية في الجنوب^(٣٨) ، ومن جزيرة شقر إلى شاطبة جنوباً اثنا عشر ميلاً^(٣٩) ، وعلى ذلك فإنها تقع بين بلنسية في الشمال وشاطبة في الجنوب^(٤٠) .

ويجعل الإدريسي جزيرة شقر تابعة لإقليم أرغيرة^(٤١) .
ووقوع الجزيرة على نهر شقر^(٤٢) ، جعل منها طريقاً للبضائع التي تمرّ عبر النهر إلى البحر الأبيض المتوسط ، ويُفهم ذلك من حديث الشريف الإدريسي عن حصن قلصة الواقع على نهر شقر قبيل الجزيرة ، إذ يقول «وقلصة حصن منيع تتصل به أجبل كثيرة بها شجر الصنوبر الكثير ويُقطع بها الخشب ويُلقى في الماء ويُحمل إلى دانية وإلى بلنسية في البحر ، وذلك أنها تسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر ، ومن جزيرة شقر إلى حصن قلبيرة ، وتفرغ هناك على البحر ، فتُملا منها المراكب وتُحمّل

(٣٦) في الروض المعبور (ص ٣٤٩) وصفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس للشريف الإدريسي (ص ١٩٢) أنها تبعد ثمانية عشر ميلاً جنوب بلنسية (الشريف الإدريسي ، أبو عبدالله محمد بن محمد الصقلي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م) ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، مطبع بريل ، ليدن ، ١٩٦٨) .

(٣٧) الموسوعة الإسلامية : مادة DJAZIRAT SHUKR

(٣٨) صفة المغرب والسودان/الشريف الإدريسي ص ١٩٢ .

(٣٩) المصدر السابق ص ١٩٢ ، ترصيع الأخبار ص ١٩ .

(٤٠) المعجب للمراكشي ص ٥١٨ .

(٤١) صفة المغرب والسودان للشريف الإدريسي ص ١٧٥ .

(٤٢) لمزيد من المعلومات عن نهر شقر والمدن الواقعة عليه أنظر :

ابن القطان ، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الفاسي (ت ٦٢٨هـ/١٢٣١م) ، نظم الجمان ح ٦ ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ص ١١٠ - ١١١ ؛ صفة المغرب والسودان ، الشريف الإدريسي ص ١٩٢ وما بعدها ؛ المقتبس لابن حيان ٣٥٨/٥ ؛ قطعة من فرحة الأنفس ص ٢٨٦ .

إلى دانية ، فتنشأ منها السفن الكبار والمراكب الصغار ، ويحمل إلى بلنسية منه ما كان عريضاً فيُصرف في الأبنية والديار»^(٤٣) .

جـ - طبيعة الجزيرة وملامحها الخاصة :

إن وقوع جزيرة شقربين ذراعَي النهر الذي ضرب حولها نطاقاً خافقاً من الماء ، وإن انبساط رقعتها أمام جبل ريبيرا جعلها تتمتع بطبيعة متميزة وخصب وافر ، وتصفها المصادر والمراجع المختلفة بأنها من أكثر بقاع الأندلس خصباً وجمالاً وخضرة^(٤٤) . وقد أشار الشريف الإدريسي إلى ذلك بقوله «جزيرة شُقْر المذكورة حسنة البقاع كثيرة الأشجار والثمار والأنهار وبها ناسٌ وجلّة»^(٤٥) ، ووقعت الإشارة إلى ذلك في ديوان ابن خفاجة إذ نجد ما نصّه في وصف تلك الجزيرة «وحسبك من ماء سائح وطير صادح وبطاح عريضة وأرض أريضة»^(٤٦) ، ويضيف ابن دحية في كتاب المطرب إلى هذا الوصف قوله «فلا ترى إلا انسجام الغمام ولا تسمع إلا ترنم البلبل والحمام»^(٤٧) . وجعلها ابن سعيد المغربي في كتاب «المغرب في حلى المغرب» ، عروس الأندلس وقال في صفتها : «عروس الأندلس المقلدة من نهريها بسلك ، المتلفعة من جنانها بسندس ، روض بّسام ، ونهر كالحسام ، وبلبل وحمام ، ومنظر يحث على حسو المدام كما قال حسنتها أبو اسحق بن خفاجة :

(٤٣) صفة المغرب والسودان/ الشريف الإدريسي ص ١٩٥ .

(*) للمزيد من المعلومات عن جغرافية جزيرة شقرب أنظر :

الأمير شكيب أرسلان ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ج٣ ، منشورات دار مكتبة الحياة ،

بيروت ، ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٢٣ ؛

A.Huici Miranda, «DJAZIRAT SHUKR» art. In Encyclopaedia of Islam.

(٤٤) الموسوعة الإسلامية ، مادة : DJAZIRAT SHUKR

(٤٥) صفة المغرب وأرض السودان/ الشريف الإدريسي ص ١٩٢ ، وورد هذا الوصف ذاته في الروض المعطار ص

٣٤٩ .

(٤٦) ديوان ابن خفاجة ص ٢٩٠ ، المطرب لابن دحية ص ١١١ .

(٤٧) المطرب لابن دحية ص ١١١ .

سُفِيَا لَهَا مِنْ بَطَاحِ أَنْسٍ وَدَوْحِ حُسْنٍ بِهَا مُطَلِّ
فَمَا تَرَى غَيْرَ وَجْهِ نَهْرٍ أَطْلُ فِيهِ عِذَارُ ظِلٍّ»^(٤٨)

وكان أبو عبد الله محمد بن عائشة الأمير المرابطي - من قادة المرابطين - منزماً بتلك الجزيرة ولا يطيب له قضاء أوقات فراغه إلا فيها . ويفسر الفتح بن خاقان في كتابه «مطمح الأنفس» ذلك بقوله «فإنها صحيحة الهواء ، قليلة الأدواء ، خضلة العشب والأزهار ، فقد أحاط بها نهرها كما تحيط بالمعاصم الأساور ، والأيك قد نشرت ذوائبها على صفيحه ، والروض قد عطر جوانبه بريحه»^(٤٩) . ويُزَعَّ في جزيرة جزيرة سُقْر في هذه الأيام البرتقال والأرز ونباتات الزينة^(٥٠) .

ومن معالم الجزيرة في أيام المسلمين حسبما ذكرته المصادر العربية .
القنطرة التي أنشئت على نهر شقر ليعبر منها الناس إلى الجزيرة ، وكان الناس يدخلون من باب ويصعدون على تلك القنطرة أو الجسر على درج^(٥١) .
وباب الزخارف الذي ذكره ابن خفاجة في شعره^(٥٢) ، والمرج والكنيسة والشط وهي أيضاً من المواضع التي ذكرها ابن خفاجة في شعره^(٥٣) .
ويذكر الحميري في «الروض المعطار» أنه كان في جزيرة سُقْر «جامع ومساجد وفنادق وأسواق»^(٥٤) وورد ذكر الجامع في كتب التراجم^(٥٥) .

(٤٨) المغرب في حلى المغرب ٣٦٣/٢ .

(٤٩) مطمح الانفس ص ٣٤٨ ، وانظر أيضاً : ابن بسام ، أبو الحسن علي بن بسام الشتريني (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م) ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٤ مجلدات في ثمانية أقسام) ، تحقيق : الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ٣ م ق ٢ ص ٨٨٩ ، المقرئ ، أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣٢ م) ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٨ ج ، حققه الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ح ٤ ص ٥٤ .

(٥٠) الموسوعة الإسلامية ، مادة : DJAZĪRAT SHUKR

(٥١) ترصيع الأخبار ص ١٩ ، المعجب ص ٥١٨ .

(٥٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٠ .

(٥٣) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٥ ، الروض المعطار ص ٣٥٠ .

(٥٤) الروض المعطار ص ٣٤٩ .

(٥٥) انظر : ابن عبد الملك المراكشي ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي (ت ١٣٠٦/٧٠٣ م) ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (الفر السادس) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ ص ١٠٤ ؛ نفع الطيب ١٦٠/٢ .

ومن معالم جزيرة سُقْر التي جرى الحفاظُ عليها زمناً منزل شاعرها ابن خفاجة وقبره ، وفي ذلك يقول ابن الأَبَّار في كتاب التكملة في معرض حديثه عن ابن خفاجة «ولم يزل قبره معروفاً بظاهر الجزيرة ومنزله بداخلها إلى أن ملكها الروم صلحاً وأخلوا أهلها في آخر سنة ٦٣٩هـ»^(٥٦) ، وكذلك كان لها سور ذكره أبو عامر محمد بن الأصيلي في رسالة له^(٥٧) ، وكان هذا السور يقع عند مدخلها وهو الذي أشار إليه صاحب ترصيع الأخبار بقوله - عند حديثه عن الجزيرة - «ولم يبق لها إلا موضع لطيف يُدْخَلُ منه إلى هذه الجزيرة قد صُنِعَ فيه حفير ، وعليها مما يلي ذلك الموضع سور وبابٌ يُصْعَدُ إليه على درج»^(٥٨) .

وفي الموسوعة الإسلامية أن قنوات الري التي أنشأها خايمي الأول «Jaime 1» ملك أراغون «Aragon» الذي فتح جزيرة سُقْر في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري ، أقيمت على أنقاض قنوات الري العربية والقوطية قبلها^(٥٩) .

(٥٦) انظر : ابن الأَبَّار القضاعي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) ، التكملة لكتاب الصلة ٢ ج ، نشره : عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٥٦ ، ح ١ ص ١٤٤ .

(٥٧) خريدة القصر ٢/٢٤٤ .

(٥٨) ترصيع الاخبار ص ١٩ .

(٥٩) الموسوعة الإسلامية ، مادة : DJĪRAT SHUKR

الأحداث التاريخية على أرض الجزيرة إبان العهد الإسلامي

ارتبط تاريخ جزيرة شقر بتاريخ شرق الأندلس (بلنسية وما جاورها) ، ولم تسجل المصادر التاريخية أية أحداث هامة متصلة بهذه المنطقة حتى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر^(٦٠) .

فعندما ولي الناصر أمر الأندلس كانت البلاد - كما يقول صاحب البيان المغرب - «جمرة تحتدم وناراً تضطرم شقاً شقاً ونفاقاً»^(٦١) ، وكانت شرق الأندلس واحدة من تلك الجهات المخالفة ، وقد تولّى بنو أبي الجوشن كبر الثورة في جزيرة شقر ، وكانوا في نحو ستين رجلاً ، وفي سنة ٣١٦هـ نهض عبد الرحمن الناصر لإخماد تلك الثورة وتغلب على بلنسية وشقر وغيرهما واستنزل الثائرين في جزيرة شقر من بني أبي الجوشن ونقلهم إلى قصر قرطبة وضرب رقابهم^(٦٢) .

ويبدو أن أهل جزيرة شقر لم ينسوا ذلك للخلافة الأموية ، فما أن قامت الفتنة في عهد الخليفة هشام المؤيد حتى استقل مجاهد العامري ببلنسية ونواحيها ، ولما اجتاز الخليفة هشام على جزيرة شقر لم يأذن له العامريون بدخولها^(٦٣) ، وفي هذه الأثناء تتابع على مدينة بلنسية عدد من موالي العامريين مثل مبارك ومظفر ولبيب ومجاهد ، إلى أن بايع العامريون المنصور عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الذي استولى عليها وعلى شاطبة ومرسية وجزيرة شقر وغيرها سنة ٤٣٢هـ . وظل المنصور عليها حتى وفاته ببلنسية سنة ٤٥٢هـ^(٦٤) .

(٦٠) للتعرف على بعض الأحداث التاريخية التي وقعت في شرق الأندلس قبل عصر الخلافة الأموية انظر :

ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٤ ج ، تحقيق ومراجعة : ج . س . كولان ، إ . ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ح ٢ ص ٥٤ - ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٩٠ .

(٦١) المصدر السابق ١٥٧/٢ .

(٦٢) المقتبس لابن حيان ٢٣٧/٥ - ٢٣٨ ؛ البيان المغرب ١٩٧/٢ .

(٦٣) الذخيرة لابن بسام ٣م ق ١ ص ٥١٧ .

(٦٤) البيان المغرب ١٦٤/٣ - ١٦٥ ، ٢٣٩ ، ٣٠١ - ٣٠٢ .

وانظر أيضاً : لسان الدين بن الخطيب ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٥م) ، أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام (أو تاريخ إسبانيا الإسلامية) تحقيق وتعليق : إ . ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ، ص ٢١٦ - ٢٢٦ .

وبويع بعده ابنه عبد الملك بن عبد العزيز ، فانهك في شرابه ومجونه إلى أن خلعه صهره المأمون يحيى بن ذي النون ملك طليطلة سنة ٤٥٧هـ^(٦٥) ، وجعل مكانه أبا عبدالله محمد بن عبد العزيز المعروف برويش ، لكن ما إن غادر المأمون بلنسية متوجهاً إلى مملكته طليطلة حتى ثار بيلنسية أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن المنصور بن أبي عامر واستولى عليها وعلى جزيرة شقر^(٦٦) ، إلى أن توفي أوائل سنة ٤٧٨هـ^(٦٧) .

وخلفه عليها ابنه أبو عمرو عثمان بن أبي بكر محمد بن عبد العزيز ، فلم يزل ملكاً عليها إلى أن سلم القادر بن ذي النون طليطلة لألفونسو السادس ، فجاء القادر إلى بلنسية فدخلها قسراً بمساعدة ألفونسو سنة ٤٧٨هـ^(٦٨) وحكمها هي وجزيرة شقر^(٦٩) . فسام القادر الناس خسفاً ، فثاروا عليه وبايعوا القاضي ابن جحاف^(٧٠) ، فهرب القادر من قصره فطارده أهل بلنسية وقبضوا عليه وساقوه إلى ابن جحاف فأمر بقتله سنة ٤٨٥هـ ، واستولى على قصره وذخائره النفيسة^(٧١) .

ولم يمض وقت طويل حتى حاصر السيد القمبيطور^(٧٢) مدينة بلنسية أشد الحصار إلى أن دخلها سنة ٤٨٨هـ وقام بقتل ابن جحاف وحرق جثته^(٧٣) . وكانت جزيرة شقر ، قبل أن يستولي السيد القمبيطور على بلنسية ، تتعرض هي وجاراتها من النواحي الواقعة جنوبي بلنسية لغارات متواصلة من السيد^(٧٤) .

(٦٥) البيان المغرب ٣/٣٠٣ .

(٦٦) الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثاني ، ص ٥٩١ (في الترجمة لابي عبد الرحمن محمد بن أحمد بن اسحق بن طاهر) .

(٦٧) البيان المغرب ٣/٣٠٤ .

(٦٨) المصدر السابق ٣/٣٠٤ ، أعمال الاعلام ص ١٨٢ .

(٦٩) الخريدة ٢/٢٤٣ (في ترجمة أبي عامر محمد بن الأصيلي) .

(٧٠) أبو أحمد جعفر بن جحاف بن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن جحاف بن يمن بن سعيد المعافري البلنسي (المقتول سنة ٤٨٨هـ) ، (البيان المغرب ٣/٣٠٥) .

(٧١) البيان المغرب ٣/٣٠٥ ، أعمال الاعلام ص ١٨٢ ، ٢٠٣ .

(٧٢) انظر كتاب : ملحمة السيد ، درسها وقدم لها وترجمها الدكتور الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ (ص ١٢٧ وما بعدها) .

(٧٣) البيان المغرب ٣/٣٠٦ ، ٤١/٤ - ٤٦ ، ١٤٩ - ١٥١ ، أعمال الاعلام ٢٠٢ - ٢٠٥ .

(٧٤) ملحمة السيد ص ٣٣٤ .

وبعد سقوط بلنسية أصبحت جزيرة شقر من النواحي الخاضعة للسيد القمبيطور ، فقد جاء في تاريخ الأندلس لابن الكردبوس أنه في سنة ٤٩٠ هـ نهض محمد بن عائشة المرابطي - قائد جيش يوسف بن تاشفين - إلى ناحية جزيرة شقر وذكر أنه يؤمها ويقصدها ويقدمها ، فالتقى بجملة من جند القمبيطور فأوقع بهم وقتلهم أشر قتلة ، ولم يفلت إلا اليسير من تلك الحملة ، فلما وصل الفلّ إليه مات هماً وغماً^(٧٥) .

وعلى إثر هذه الهزيمة التي ألحقها ابنُ عائشة بجيش القمبيطور تمكن المرابطون من استعادة الجزيرة سنة ٤٩٠ هـ ، ومضوا بعدها يسعون لاسترجاع مدينة بلنسية الى أن نجح في ذلك القائد المرابطي أبو محمد مزدلي سنة ٤٩٥ هـ^(٧٦) . وغدت جزيرة شقر بعد تحريرها ولاية مرابطية ، يُعَيِّنُ المرابطون ولايتها ، وكان منهم أبو اسحق بن صواب ، وأبو عبد الله بن عائشة^(٧٧) ، وكان هذان الواليان صديقين لشاعر الجزيرة أبي اسحق بن خفاجة ، وذلك ما تشير إليه الرسائل التي كان يوجّهها ابن خفاجة إليهما^(٧٨) .

وكانت جزيرة شقر - في عصر المرابطين - متنزها يقضي فيه الولاة أوقات فراغهم كما هو مشهور عن أبي عبد الله محمد بن عائشة^(٧٩) . وعندما سقطت مدينة سرقسطة ونواح أخرى من شرق الأندلس سنة ٥١٢ هـ على يد الفونسو الاول ملك أراغون ، أصبحت جزيرة شقر وما حولها قاعدة ينطلق منها المدافعون عن تلك النواحي^(٨٠) ، وقد هاجم ابن رزمير الجزيرة سنة ٥٢٠ هـ

(٧٥) انظر : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، نصاب جديدان ، تحقيق : الدكتور أحمد مختار المبادي ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٧١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ؛ ملحة السيد ص ٣٣٨ .
(٧٦) البيان المغرب ٣/٣٠٦ ، ٤١/٤ - ٤٢ ؛ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ص ١٠٩ - ١١٠ .
(٧٧) انظر ديوان ابن خفاجة ص ٦٦ .

(٧٨) المصدر السابق ، وليس غريبا أن نجد ابن خفاجة يقدّر هذين الزعيمين ويخلص الودّ لهما ، فإليهما يرجع الفضل في استرجاع بلده وحمايتها وهي الموطن الذي هام ابن خفاجة في عشقه بل هو الموطن الذي كان مبعث الشاعرية الفذة عنده .

(٧٩) الذخيرة م ٣ ق ٢ ص ٨٨٩ ؛ مطمح الأنفس ص ٣٤٨ ؛ نفع الطيب ٤/٥٤ .
(٨٠) القاسي ، علي بن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٣ .

وسنة ٥٢٣ هـ وأوقع هزيمتين بالمرابطين^(٨١) ، ولعل من الاسباب الرئيسية في هزيمة المرابطين أنهم كانوا منشغلين بمقاومة الدعوة الموحدية بالمغرب^(٨٢) .

وفي أواخر عصر المرابطين نشبت ثورات عدّة في مدن الأندلس كان من بينها ثورة القاضي أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز في بلنسية وكانت ثورته سنة ٥٣٩ هـ وانتهت بسيطرته على المنطقة الممتدة من بلنسية إلى شاطبة ، بما في ذلك جزيرة شقر ، إلى أن ثار عليه جنده سنة ٥٤٠ هـ^(٨٣) .

واتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض ، كان النصارى يخافون منه كثيرا ، فأقام بشرق الأندلس يحفظها ويدافع عنها إلى أن مات نتيجة جراح أصابته في فتنة نشبت بمرسية سنة ٥٤١ هـ^(٨٤) .

وقام بعده بأمر شرق الأندلس محمد بن سعد بن مردنيش ، وكان خادما لابن عياض يحمل له السلاح ويتصرّف بين يديه في حوائجه^(٨٥) وكان والده سعد صهرا لابن عياض^(٨٦) .

وبذلك تصبح جزيرة شقر من الاراضي التابعة لسلطة محمد بن سعد بن مردنيش منذ سنة ٥٤٢ هـ^(٨٧) ، إلى أن ظهرت دولة الموحدين بالمغرب وامتد سلطانها إلى الأندلس^(٨٨) ، وإذ ذاك اصطلح ابن مردنيش بالموحدين قرب غرناطة سنة ٥٦٠ هـ ف وقعت عليه الهزيمة^(٨٩) ، وتحالف مع النصارى^(٩٠) ، وعند ذلك خاف أهل شُقر على

(٨١) نظم الجمان لابن القطان ص ١٠٩ - ١١١ .

(٨٢) الانيس المطرب ص ١٧١ .

(٨٣) أعمال الأعلام ص ٢٥٦ ؛ العبر لابن خلدون ٤/ ١٦٥ (ويسميه ابن خلدون القاضي مروان بن عبد الله بن مروان بن خصاب وأنه ثار ببلنسية سنة ٥٣٧ هـ) .

(٨٤) المعجب ص ٣٠٥ .

(٨٥) المصدر السابق ص ٣٠٥ .

(٨٦) أعمال الأعلام ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ الإحاطة ٢/ ١٢١ .

(٨٧) الإحاطة ٢/ ١٢١ .

(٨٨) العبر لابن خلدون ٤/ ١٦٦ .

(٨٩) أعمال الأعلام ص ٢٦١ - ٢٦٢ ؛ الإحاطة ٢/ ١٣٧ .

(٩٠) الإحاطة ٢/ ١٢٢ وما بعدها ؛ أعمال الأعلام ص ٢٦١ ؛ الذيل والتكملة / السفر الأول / القسم الثاني / ص ٥٢٦ (في ترجمة : أحمد بن محمد بن هذيل) .

أنفسهم فخلعوا طاعة ابن مردنیش وبايعوا أبا بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي العابد من أهل جزيرة شقر فقام بأمر تلك البلاد ودعا للموحدين وذلك في سنة ٥٦٦ هـ^(٩١) .

ويذكر صاحب كتاب «المنّ بالإمامة على المستضعفين» أنه في سنة ٥٦٥ هـ ثار أهل شقر على ابن مردنیش وقاموا على النصاري الذين كانوا فيها ، وأنهم اتّصلوا بالسيد أبي حفص بن الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي ، فوجّه اليهم واليا هو أبو أيوب بن هلال ، فوصل إلى جزيرة شقر وضبطها ، فنزل ابن مردنیش في جزيرة شقر^(٩٢) .

وعندما قام أبو بكر بن سفيان المخزومي بثورته في جزيرة شقر ضد ابن مردنیش أواخر سنة ٥٦٦ هـ ، حاصره ابن مردنیش حصاراً شديداً وحاربه أمدا طويلا ، وفي ذلك نورد هذا النص من كتاب الحلة السيرة لابن الأبار :^(٩٣)

«فأنفذ إليه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد^(٩٤) قائدا من كبار أصحابه في جملة من خيله ورسم له حصاره والتضييق عليه ، فبدأ بمنزلته منتصف شوال من سنة ست وستين وخمسائة ، وأقام على ذلك إلى منتصف ذي الحجة ، وابن سفيان يقاومه ويقوم بتدبير بلده ، والأمداد تتلاحق في كلّ حين وتحقق به ، وابن سعد وأخوه أبو الحجاج قد اكتنفاه في الجموع الكثيفة ، حتّى خيف عن الوهن ، فاقتحم البلد ذو الوزارتين أبو أيوب بن هلال^(٩٥) مقويا عزائم أهله ، وضامنا لهم الاستقلال بنسبته ، فتخلّى ابن سفيان له عنه ، راضيا في الظاهر متبرما في الباطن ، وتولّى ابن هلال من المصابرة في تلك المحاصرة ، والمحاولة لتلك المصاولة ، ما أبقاه أثرا مشهورا ، وخبرا تداولته الألسن دهورا ، واعتلّ ابن سعد خلال ذلك فلحق بمرسية ، وألزم أخاه

(٩١) الحلة السيرة ٢/ ٢٦٨ ؛ الذيل والتكملة / السفر الأول / القسم الأول ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ؛ أعمال الأعلام ٢٦٢ ، التكملة لكتاب الصلة ١/ ٧٦ ؛ وانظر : البيهقي ، أبو بكر بن علي الصنهاجي ، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، ١٩٧١ ، ص ٨٨ .

(٩٢) المنّ بالإمامة ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ، ص ٤٧٠ - ٤٧١ .

(٩٣) الحلة السيرة ٢/ ٢٦٨ .

(٩٤) شقيق محمد بن سعد بن مردنیش .

(٩٥) هو الذي أنفذه الموحدون إلى جزيرة شقر بناء على طلب أهلها ، وقد سبق ذكره .

ملازمة البلد فتتفّس الخناق ثم انتعشت بوفاته الأرماق .
وقد كان هذا الحصار طويلا ومشهورا ووصفته المصادر التاريخية بالمحاصرة
«البلوية المشهورة»^(٩٦) . وقد ضاق أهل جزيرة شقر بالحصار فأنفذوا رسائل استصراخ
إلى خليفة الموحدين آنذاك يوسف بن عبد المؤمن^(٩٧) .
ويفهم من الروايات التاريخية التي وصفت هذا الحصار ، أنه بعد رجوع محمد
ابن سعد بن مردنيش إلى مرسية ورفع الحصار عن الجزيرة أقلع الموحّدون بدورهم
عنها ، ثم إن ابن مردنيش عاد إلى حصارها من جديد ليُخرج منها ابن هلال القائم
بها ، واستدعى ابن مردنيش أخاه أبا الحجاج ليعينه على منازلتها ، فوصله وقصر به ،
ثم إن أبا الحجاج تخلى عن أخيه ابن سعد ، وبادر إلى الموحّدين ، مما زاد في علة
محمد بن سعد بن مردنيش ، فكرّ إلى مرسية ومات بها سنة ٥٦٧ هـ^(٩٨) .
وبعد موت ابن مردنيش دانت جزيرة شقر وبلاد شرق الأندلس كلّها للخليفة أبي
يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ الموحدي ، وقد أكرم الموحّدون أبا بكر بن
سفيان المخزوميّ بسبب ثورته على ابن مردنيش وأصبح لابن سفيان «أثرة عند أبي
يعقوب بن عبد المؤمن فمن بعده من عقبه والولاة من قبلهم ، اختصّ ابن سفيان هذا
وبنوه بمعظمتها»^(٩٩) وأصبحت جزيرة شقر محلّ رعاية الموحّدين وعنايتهم - مثلما كانت
أيام المرابطين - وغدت قاعدة تنطلق منها الغارات على الإيبان في شمال
الأندلس^(١٠٠) .

أما بنو مردنيش فقد أصبحوا - بعد وفاة محمد بن سعد - من أنصار الخليفة
الموحّدي وأصهاره ، وتزوَّج الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحّدي سنة ٥٦٩ هـ

(٩٦) التكملة لكتاب الصلاة ٧٦/١ ، الذيل والتكملة / السفر الاول / القسم الاول ص ٤٠٦ .

(٩٧) انظر الأبيات التي كتبها أبو المطرّف محمد بن أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي لهذه الغاية
(الرحلة السيرة ٢/٢٦٩) .

(٩٨) المَنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ص ٤٠٦ ، ٤٧١ ؛ الذيل والتكملة / السفر الاول القسم الاول ص ٤٠٦ ؛
التكملة لكتاب الصلاة ٧٦/١ ؛ الأنيس المطرب ٢١١ ؛ أعمال الأعلام ٢٦٢ ، وفي كتاب المعجب للمراكشي
(ص ٣٠٥) ، أن وفاة محمد بن سعد بن مردنيش كانت في سنة ٥٦٨ هـ .

(٩٩) التكملة لكتاب الصلاة ٧٦/١ ؛ الذيل والتكملة / السفر الاول / القسم الاول ص ٤٠٦ .

(١٠٠) المَنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ٤٩١ (في الحديث عن غزوة أبي يعقوب الموحّدي سنة ٥٦٧ هـ إلى وبلة
. (Ubeda

من صفية بنت محمد بن سعد بن مردنیش وصنع لها مهرجانا عظيما^(١٠١)
وتبعاً لذلك أسند الخليفة الموحدى ولاية بلنسية وجهاتها إلى أبى الحجاج
يوسف بن سعد بن مردنیش ، وظلّ عليها إلى أن مات سنة ٥٨٢ هـ^(١٠٢) ، وخلف
جملة من الأبناء منهم : أبى الحملات مدافع ، وأبو الظفر غالب ، وأبو الحارث
سبع ، وأبو سلطان عزيز ، وأبو ساكن عامر ، وأبو محمد طلحة ، وكانوا جميعهم ولاية
للموحدین على نواحي شرقي الأندلس حتى نهاية الحكم الموحدى ، وكان رئيس
جزيرة شقر من بين هؤلاء الأبناء أبو السلطان عزيز^(١٠٣) .

* * *

وبعد وفاة الخليفة الموحدى المستنصر سنة ٦٢٠ هـ ، قامت ثورات عدّة في
جهات مختلفة من الأندلس ضدّ الموحدین ، وعندها ثار بنو مردنیش على الموحدین
بلنسية ، وتولّى كبر ذلك أبو جميل زيّان بن أبى الحملات مدافع بن يوسف بن
سعد ، الذي ثار على أبى زيد عبد الرحمن بن يعقوب الموحدى ، فاضطرّ الموحدى
إلى اللجوء الى اراغون Aragon ودخل أبو جميل بلنسية سنة ٦٢٦ هـ ودعا فيها
للخليفة العباسي ببغداد^(١٠٤) ، واختلف أبو جميل مع بني عمّه عزيز بن يوسف بن
سعد بن مردنیش في جزيرة شقر فاطاعوا ابن هود^(١٠٥) وأصبحت شقر في طاعة ابن
هود .

وفي أثناء ذلك أخذ الأراغونيّون يتحرّشون بلنسية ونازلوا مدينة أنيشة سنة ٦٣٤
هـ فخرج إليهم زيّان ومعه «أهل شاطبة وجزيرة شقر»^(١٠٦) فكانت عليهم الواقعة
العظيمة التي خسر فيها المسلمون كثيرا والتي عُرفت بوقعة أنيشة^(١٠٧) .

(١٠١) الأنيس المطرب ص ٢١٢ ؛ أعمال الاعلام ص ٢٧١ .

(١٠٢) أعمال الاعلام ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(١٠٣) المصدر السابق ص ٢٧٢ .

(١٠٤) أعمال الاعلام ص ٢٧٢ ، العبر لابن خلدون ١٦٧/٤ ، ١٦٨ .

(١٠٥) محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، ثار على الموحدین في آخر أيامهم في مرسية وغيرها (انظر : أعمال

الاعلام ص ٢٧٧ - ٢٨٦) .

(١٠٦) العبر لابن خلدون ١٦٧/٤ .

(١٠٧) أعمال الاعلام ص ٢٧٢ ، العبر لابن خلدون ١٦٧/٤ .

وأخذ خايمي الثاني Jaime II ملك أراغون يزحف نحو بلنسية فاستولى عليها سنة ٦٣٦ هـ بعد سنة من الحصار^(١٠٨) ، وعند ذلك خرج زيان إلى جزيرة شُقر وأقام بدعوة الأمير أبي زكريا الحفصي في تونس وبعث إليه ببيعته مع أبي عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي الذي وصل إلى تونس وأنشد قصيدته المشهورة :
أَدْرِكْ بِحَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسَا إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِيهَا دَرَسَا^(١٠٩)
إِلَّا أَنَّ أَبَا زَكْرِيَا لَمْ يَكْدِ يَرْسِلْ نَجْدَاتِهِ حَتَّى كَانَتْ بِلَنْسِيَّةٍ قَدْ سَقَطَتْ وَتَلَاهَا بَعْدَ ذَلِكَ سَقُوطِ النُّوَاحِي التَّابِعَةِ لَهَا فِي شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ .
أما جزيرة شُقر فقد سقطت في يد خايمي الثاني في آخر سنة ٦٣٩ هـ صَلَحَا وَأُخْرِجَ أَهْلُهَا مِنْهَا^(١١٠) .

وفي حاشية الحلة السِّيراء أن جزيرة شُقر سقطت سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م^(١١١) ، مع أن المحقق يذكر في حاشية أخرى^(١١٢) أنها سقطت سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م . وفي سنة ١٦٠٩ م قامت ثورة كبيرة في تلك الجزيرة طُرِدَ المسلمون على إثرها^(١١٣) .

(١٠٨) أعمال الأعلام ص ٢٧٣ ؛ العبر لابن خلدون ١٦٧/٤ ؛ الروض المعبط ص ٩٧ - ١٠٠ ؛ الذيل والتكملة / السفر الاول / القسم الثاني / ص ٤٧٤ .

(١٠٩) العبر ١٦٧/٤ ، أعمال الأعلام ص ٢٧٣ .

(١١٠) التكملة ١٤٤/١ (في الترجمة لابن خفاجة) ؛ نفح الطيب ٤٧٢/٤ ؛ الموسوعة الإسلامية (جزيرة شقر) .

(١١١) الحلة السِّيراء ٣٠٦/٢ .

(١١٢) الحلة السِّيراء ٢٦٧/٢ .

(١١٣) المصدر السابق (الحاشية) ٢/٢ ص ٢٦٧ .

جزيرة سُقْر في الأدب الأندلسي

نالت جزيرة سُقْر من أدباء الاندلس - مثلما نالت من سلاطينها - نصيباً وافراً من الاهتمام قلّما نالته مدينة أخرى من مدن الاندلس ، ولم يصدر هذا الاهتمام عن الأدباء الذين وُلِدوا ونشأوا في تلك الجزيرة فقط وإنما نراه يصدر عن أعلام عرّجوا عليها وعرفوها أو أقاموا بها مدة من الدهر ، غير أنّ الاهتمام الأكبر جاء من أدباء الجزيرة التي شهدت أرضها ولادتهم ونشأتهم في أحضان طبيعتها الفاتنة مثل أبي اسحق ابراهيم بن خفاجة وأبي المطرّف أحمد بن عميرة ومحمد بن إدريس بن مرج الكحل وأبي طالب عبد الجبار وأبي عامر محمد بن الأصيلي وغيرهم .

وقد أنجبت جزيرة سُقْر خلال تاريخها الاسلامي عدداً من الادباء البارعين الذين تعلّقوا بها وخلّدوها في أدبهم ، ولذلك وصفها ابن سعيد المغربي في كتابه اختصار القدح المعلى بأنّ «من عادتها إطلاع الأنجم الزهر»^(١١٤) .

وقد كانت العلاقة بين جزيرة سُقْر وبين أبنائها من أهل الادب علاقة حميمة فقد تركت - بفضل طبيعتها الأخاذة وحسنها الفائق - أثراً عميقة في شخصياتهم وفي أدبهم موضوعاته وأساليبه ، فلا شك أنّ أرضاً هذه سماتها من شأنها أن ترقّ فيها المشاعر وتُضَقِّلَ الأذواق وتُسَخِّدَ الأذهان ، وتجعل ساكنها يشغف بها ويتعلّق بكلّ ذرة من ترابها ويشتدّ إحساسه بالانتماء إليها ، وأنّ أرضاً هذه صفتها لا بدّ أن تجتذب العشاق وتنجب الشعراء .

ولمّا طيّعة هذه الجزيرة يرجع الفضل فيما جُبِلَ عليه شعراؤها من تعشّق للطبيعة وإكثار من وصف عناصرها المختلفة ، ومن شأن هذه الطبيعة أن تحرك عواطف الشعراء وترهف إحساسهم وترقّق مشاعرهم وتملأ أخيلتهم بالصور البديعة واللوحات الشعرية الجميلة .

(١١٤) اختصار القدح المعلى ص ٥٣ .

ولذلك نجد جامع ديوان ابن خفاجة يبيّن ما تركته الطبيعة الجميلة بجزيرة سُقْر في شعره بقوله : «إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجريّة ماء ، ورنّة طائر ما هو إلّا لأنّه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطِرَ عليها وجبلة ، وإمّا لأنّ الجزيرة كانت داره ، ومنشأه وقراره ، وحسبك من ماء سائح ، وطير صادق ، وبطاح عريضة ، وأرض أريضة ، فلم يعدم هنالك ، من ذلك ، ما يبعث مع الساعات أنسه ، ويحرّك إلى القول نفسه ، حتى غلب عليه حبّ ذلك الأمر ، فصار قوله فيه عن كلف ، لا تكلف ، مع اقتناع ، قام مقام اتساع ، فأغناه عن تبذل وانتجاع»^(١١٥) .

وقد تراوح الأدب ، الذي تصدّى لذكر هذه الجزيرة ، بين وصف لطبيعتها الجميلة والعناصر المختلفة لتلك الطبيعة ، أو ذكر لمعالمها وحنين إليها ، أو تحسّر على أسباب اللّهُو التي كانت تجري في مرابعها ، أو ندب لها ، أو ذكر لبعض الحوادث التاريخية التي مرّت بها ، أو رثاء للجزيرة بعد سقوطها أو غير ذلك . أما وصف طبيعة الجزيرة ، فيشتمل في العادة على وصف النهر الذي يحيط بها ، وبطاحها ونسائمها وطيورها وأشجارها ووردها ونوارها ومكانة ذلك كلّ في نفس الشاعر ، مع الاتكاء بصورة كبيرة على التصوير البديع وإيراد التشبيهات المختلفة والمبالغة أحياناً في تلك التشبيهات ، فهذا هو ابن خفاجة - وهو أكثر من تغنى من شعراء الجزيرة بمحاسن بلده - يشبّه الجزيرة بالجنة حيث يقول :^(١١٦)

فسقياً لأرضٍ ألفتنا فإنّها وإنّ أكْ قَدْ فارقتها جنةُ الخلدِ
وعندما يتحدّث ابن خفاجة في مقطوعة له عن جنة الخلد في الأندلس فإنّه يعني

جزيرة سُقْر ، حيث يقول :^(١١٧)

يسا أهملَ أندلسٍ لله درّكم	ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارٌ
ما جنةُ الخلدِ إلّا في دياركم	وهذه كنتُ لو خيّرتُ اختارُ
لا تتّقوا بعدها أن تدخلوا سُقراً	فليس تُدخلُ بعد الجنة النارُ

(١١٥) ديوان ابن خفاجة ص ٢٩٠ .

(١١٦) ديوان ابن خفاجة ص ٣٤٨ .

(١١٧) المصدر السابق ص ٣٦٤ .

وحيث يقول: (١١٨)

إِنَّ لِلْجَنَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ مَجْتَلَى حُسْنٍ وَرِيَا نَفْسِ
فَسْنَا صُبْحَتِهَا مِنْ شَنْبٍ وَدُجَى لَيْلَتِهَا مِنْ لَعْسِ
فَإِذَا مَاهَبَتِ الرِّيحُ صَبَاً صِحْتُ وَاشْوَقي إِلَى الْأَنْدَلُسِ
وها هو ذا أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي يصف جزيرة شقر من رسالة
له فيقول: «ويا لجنّة أجرى الله النّهرَ تحتهَا» (١١٩).

وكان ابن خفاجة من أكثر شعراء بلده وصفاً لطبيعة الجزيرة وتغنياً بمحاسنها
وإفصاحاً عن عشقه لها وتعلقه بمعالمها، فها هو يقول من قصيدة، بعد أن يصف
فرسه الذي حمله إليها: (١٢٠)

وَحَنٌّ إِلَى شُقْرِ فَخْفٍ عَلَى السُّرَى
يَخُوضُ خَلِيجاً أَوْ يَجُوبُ كَيْبَا
يَوْمٌ بِهَا أَرْضاً عَلَيَّ كَرِيمَةً
وَمُرْتَبِعاً فِيهَا إِلَيَّ حَبِيبَا
وَنَهْراً كَمَا ابْيَضَ الْمُقْبَلُ سَلْسَلَاً
وَجَزْعاً كَمَا اخْضَرَ الْعِذَارُ خَضِيَا
وَرُبَّ نَسِيمٍ مَرٌّ يَخْطُرُ عَاطِراً
رَقِيقَ الْحَوَاشِي لَا يُحَسُّ دَبِيبَا
وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ بَلَّةً
وَمِنْ نَوْرِ هَاتِيكَ الْأَبَاطِحِ طِيَا
فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ هَتَفْتُ حَمَامَةً
وَسَاعَدْتُ شَوْقِي فَاهْتَسَزْتُ قَضِيَا
وَقَدْ قَلَدَ النَّوَارُ جِيداً لِرُبُوءِ
هَنَّاكَ وَنَحْرًا لِفَضَائِ رَحِيَا

(١١٨) المصدر السابق ص ١٣٦، وقد قال هذه الأبيات في الشوق إلى الأندلس وهو في المغرب.

(١١٩) الروض المعطار ص ٩٨، نفح الطيب ٤/ ٤٩٣.

(١٢٠) ديوان ابن خفاجة ص ١١٢ - ١١٣.

وَأَفْصَحَتِ السُّورِقَاءُ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ
نَشِيداً وَقَدْ رَقَّ النَّسِيمُ نَسِيباً
وَكَسَانِ عَلَى عَهْدِ السَّلَوِ تَغْنِيّاً
يَهَيِّجُ إِطْرَابِي فِعَادَ نَحِيباً
دَعَا بِغُرُوبِ الدَّمْعِ وَالِدَارُ غُرْبَةً
فَلَمْ أَرَ إِلَّا دَاعِياً وَمُجِيباً

ويلاحظ القارئ لهذه الأبيات أن ابن خفاجة لا يكتفي ، حين يصف بلده
بتصوير معالم ذلك البلد ، وإنما يصفه وصف عاشق له ، فيبالغ في تصوير محاسنه .
كما يصوّر لنا تفاعله مع طبيعة بلده وإقامة صلوات وجدانية بينه وبين عناصر تلك
الطبيعة ، فهو يهتف في أباطحها كالورقاء ويهتز كالغصن ويأسى لفقدانها فتفيض
عيونه بالدمع .

ويبدو أن حبّ جزيرة سُقْرِ قد وقع في قلوب كل من عرفوها أو وطئوا أرضها من
الشعراء من غير أبنائها ، فهذا هو الشاعر ابن عابد الفاسي^(١٢١) ، يتمناها أن تكون بدلاً
لوطنه وأهله ، لما توفّره لقاطنيها من الأمن والهدوء ، حيث يقول من قصيدة موجّهة
إلى صديقه أبي العباس أحمد بن محمد بن خلف بن يونس بن طلحة الشُّقْرِيّ سنة
٦٢٣ هـ وهما بمراكش :^(١٢٢)

سقى جزيرة سُقْرِ صَوْبَ خَاطِرِهِ
فَلَسْتُ أَرْضِي لَهَا صَوْبَ الْحَيَا الْهَيِّنِ
أَرْضٌ بَوْدَيَّ أَنْ أَحْظَى بِهَا عَوْضاً
عَنِ الْحَظِيزَيْنِ مِنْ أَهْلِ وَمِنْ وَطَنِ
إِذَا اسْتَجَارَ أَخُو حُزْنٍ بِسَاحَتِهَا
أَضْحَى مَدَى الدُّهْرِ فِي أَمْنٍ مِنَ الْحَزَنِ

(١٢١) أبو عبد الله محمد بن علي بن العابد الفاسي المتوفى سنة ٦٩٠ هـ ، كاتب وشاعر ، قدم الاندلس سنة ٦٣٠ هـ ،
وارتسم بالكتابة عند محمد بن يوسف بن الأحمر ملك غرناطة (انظر : الدليل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي

/السفر الثامن/ القسم الاول ص ٣٣٣ ؛ الإحاطة لابن الخطيب ٢/٢٨١) .

(١٢٢) الدليل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي /السفر الاول/ القسم الاول ص ٣٧٨ .

محلّ كلّ رئيسٍ ليس همّته

إلاّ ابتياع الغلّى بأنفس الثمن

ولا تُصَرِّفُ غيرَ الغَضْبِ راحته

أو اليراعة أو أشباهها اللُّدن

ولئن كانت أبياتُ ابنِ عابد الفاسي هذه تذهب مذهب المجاملة ، وتبدو فيها العاطفة باهتة ، فإننا نجد في شعر أبي عبد الله محمد بن عائشة المرابطي في الحنين إلى جزيرة شقر وذكر محاسنها ما يعبر عن حبّ صادق وعاطفة جيّاشة ، فهذا هو يقول من قصيدة له مطلعها : (١٢٣)

ألا خَلْياني والصُّبا والقوافيا أرَدُّها شَجْواً فأجهش بأكيا
بعد أبيات :

وقد بانَ حُلُو العيشِ إلاّ تَعِلَّة

تحدّثني عنها الأمانِي خاليا

فيا بَرَدَ ذاك الماءِ هل منك قطرة

فها أنا أَسْتَقِي غمامَكَ صاديا

وهيهاتَ حالتُ دون شُقْرِ وعَهْدِها

ليالٍ وأَيامُ تُخالُ لياليا

فقلْ في كبيرِ عِبادَةِ عائِدِ الصُّبا

فأَضْبَحَ مُهْتَاجاً وقد كانَ ساليا

فيا راكباً مستعملَ الخطوِ قاصدا

ألا عَجَّ بِشُقْرِ رائِحاً ومُنَاديا

وَقَفْتُ حيثُ سالَ النُّهْرُ ينسابُ أرقماً

وهَبْ نَسيمُ الأيِّكِ ينفثُ راقيا

(١٢٣) انظر هذه الأبيات في مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٣٤٩ ؛ معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/ ٣٥٤ - ٣٥٥ ، وينسب ابن سعيد المغربي البيتين قبل البيت الأخير إلى أبي القاسم عبد الرحمن بن خرشوش (رايات المبرزين ص ١٢٣) .

وَقُلْ لِأَثِيلَاتٍ هُنَاكَ وَأَجْرُ

سُقِيَّتِ أَثِيلَاتٍ وَحُيِّتِ وَاِدِيَا

وهناك شعر غير قليل يصف ما كان يدور في أنحاء جزيرة شقر وميادينها من مجالس اللهو التي كان يجتمع فيها الأصدقاء والأحبة في الرياض والمنتزهات وعلى ضفاف الأنهار وفي القوارب النهرية ، فمن ذلك قصيدة لمحمد بن ادريس بن مرج الكحل يصف فيها عشية قضاها مع أصحابه على ضفة نهر شقر عندما كانت تحف به أشجار البرتقال التي كانت تزدان بشمارها الياقة ، ويصف فيها أيضاً المطارحات الشعرية والأحاديث التي دارت بينهم بينما الطيور من حولهم تهتف بأغاريدها^(١٢٤) .

وَعَشِيَّةٌ كَانَتْ قَنِيصَةً فَنِيَّةٌ	أَلْقَوْا مِنَ الْأَدَبِ الصَّرِيحِ شُيُوخَا
فَكَأَنَّهَا الْعَنْقَاءُ قَدْ نَصَبُوا لَهَا	مِنَ الْأَنْجَنَاءِ إِلَى الْوُقُوعِ فُخُوخَا
شَمَلَتْهُمْ آدَابُهُمْ فَتَجَادَبُوا	سِرَّ السُّرُورِ مُحَدَّثًا وَمُصِيخًا
وَالْوُرُقُ تَقْرَأُ سُورَةَ الطَّرَبِ الَّتِي	يُنْسِيكَ مِنْهَا نَاسِخٌ مَنُسُوخَا
وَالنَّهْرُ قَدْ طَفَحَتْ بِهِ نَارُنُجُهُ	فَتِيَمَمْتُ مِنْ كَانَ فِيهِ مُنِيخَا
فَتَخَالَهُمْ خَلَلُ السَّمَاءِ كَوَاكِبَا	قَدْ قَارَنْتُ بِسَعُودِهَا الْمَرِيخَا
خَرَقُ الْعَوَائِدِ فِي السُّرُورِ نَهَارَهُمْ	فَجَعَلْتُ أَيْيَاتِي لَهَا تَارِيخَا

ومن هذا القبيل أيضاً قصيدة لابن خفاجة قالها في زمن صباه يصف فيها أيام مرجه وطربه ، وعشايا لهوه ولعبه ، بباب الزخارف ، من أبواب جزيرة شقر ، يقول فيها :^(١٢٥)

أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لِي بِيَابِ الزَّخَارِفِ
رَقِيقِ حَوَاشِي الْحُسْنِ حُلُوِ الْمَرَاشِفِ
لَهَوْتُ بِهِ وَالْدَهْرُ وَسَنَانُ ذَاهِلُ
وَعُغْضُنُ الصَّبَا رِيَانُ لَدُنْ الْمَعَاطِفِ
أُعَاطِي تَحَايَا الْكَاسِ وَالْأَسْرِ فَنِيَّةُ
تَخَايَلُ سَوْدَ الْعُذْرِ بِيضَ السَّوَالِفِ

(١٢٤) انظر هذه القصيدة في : معجم شيوخ الرعي ٢٠٨ ، نفع الطيب ٥٢/٥ .

(١٢٥) ديوان ابن خفاجة ص ٢١٠ - ٢١١ .

وذيلُ رداءِ الغَيمِ يخفقُ والصَّبا
 تخبُّ وموجُ النهرِ ضخْمُ الرُّوَادِفِ
 يطيرُ بنا فيه شِراعُ كَأَنَّهُ
 إذا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ أحشاءُ خائِفِ
 وقد بلَّ أعطافُ الثرى دَمْعَ مُزْنَةٍ
 تحيّرُ في جفنٍ من النُّورِ طارِفِ
 زمانُ تولى بين كَأْسٍ تليدةٍ
 تُدارُ وعَيشٍ للحدائِثِ طارِفِ
 وشمسٍ لِلألاءِ الزجاجةِ طَلْقَةٍ
 وظلٍّ لربعانِ الشَّيْبَةِ وارِفِ^(١٢٦)

ولابن خفاجة مقطوعة شعرية جميلة يصف بها وَجْدَهُ عندما مرَّ بأَيكة على
 ضفاف نهر شقر كان يلتقي فيها مع محبوبته ، ويقدم الفتح بن خاقان في كتاب «قلائد
 العقيان» هذه القصيدة بقوله «وكانت بضفة الجزيرة أَيْكة يانعة ، وكان هو ومن يهواه
 يقعدان لديها ، ويوسدان خدودهما ابرديها ، فمرَّ بها ومحبوبه قد طواه الردى ، ولواه
 عن ذلك المنتدى ، فتذكر العهد وجماله ، وأنكر صبره لفقده واحتماله ، فقال :
 ألا ذكّرْتَنِي العَهْدَ بالأنسِ أَيْكَةً

فأذكرْتُهَا نوحَ الحمامِ المطوّقِ
 وأكبتُ أبكى بين وَجْدِ أناخِ بي
 حديثٍ وعَهْدٍ للشَّيْبَةِ مُخْلِقِ
 وأنشَقُ أنفاسَ الرِّيحِ تَعَلَّلًا
 فأعدم فيها طيبَ ذاكِ التَّنَشُّقِ
 ولَمَّا عَلَتْ وَجْهَ النهارِ كَأَبَةٍ
 ودارَتْ به لِلشَّمْسِ نظرةٌ مُشْفِقِ
 عطفتُ على الأجداثِ أَجْهَشُ تارةً
 وألثُمُ طَوْرًا تُرْبَها مِنْ تَشْوِقِ

(١٢٦) انظر مثلاً آخر في ديوان ابن خفاجة ص ٣٤٦ - ٣٤٩ .

وَقُلْتُ لِمُغْفٍ لَا يَهَبُ مِنَ الْكُرَى
 وَقَدْ بَتُّ مِنْ وَجْدٍ بَلِيلِ الْمُؤَرِّقِ
 لَقَدْ صَدَعَتْ أَيْدِي الْحَوَادِثِ شَمَلَنَا
 فَهَلْ مِنْ تَلَاقٍ بَعْدَ هَذَا التَّفَرُّقِ
 وَإِنْ تَكُ لِلخُلَيْنِ نَسْمُ التَّقَاءِ
 فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ أَوْ كَيْفَ نَلْتَقِي
 فَأَعِزُّرْ عَلَيْنَا إِنْ تَبَاعَدَ بَيْنَنَا
 فَلَمْ يَذَرِ مَا أَلْقَى وَلَمْ أَذِرْ مَا لَقِيَ (١٢٧)

وقد كان وقوع الجزيرة على ضفاف نهر شقر مدعاة الى خروج أهل تلك الجزيرة إلى النهر بالقوارب إما للنزهة وقضاء الساعات الممتعة وإما لصيد السمك ، وقد أورد ابن الأبار في تحفة القادم قصيدة أنشدها له أبو المطرف بن عميرة في وصف نزهة بنهر جزيرة شقر ، وفي هذه القصيدة وصف للقارب الذي خرج به المنتزهون ، وللشباك التي كانت معهم ، وللسمك الذي اصطادوه في تلك الرحلة النهرية ، فيقول : (١٢٨)

خُذْ فِي حَدِيثِكَ إِنْ وَصَفَكَ يُطْرِبُ
 عَنْ يَوْمِ أَنْسَ ذِكْرُهُ مُسْتَعَذِبُ
 وَاطْلُبْ أَحَادِيثاً مِنَ الْآيَامِ إِنْ
 سَمَحَتْ بِذَا وَأَظَنَّ ذَلِكَ يَضْعُبُ
 يَوْمَ أَرَانَا الْحُسْنَ فِي النَّهْرِ الَّذِي
 قَدْ طَابَ مِنْهُ مَوْرَدٌ أَوْ مَشْرَبُ

(١٢٧) الفتح بن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله بن خاقان بن عبدالله القيسي الاشبيلي (ت ٥٢٩هـ / ١١٣٥م) ، قلاتد العقبان في محاسن الأعيان ، مصورة عن طبعة باريس ، قدم له ووضع فهرسه محمد العناني ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٦٦ ، ص ٢٧٣ .
 (١٢٨) ابن الأبار القضاعي ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر البلنسي (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) ، المقتضب من تحفة القادم ، نشرها الفريد بستانني ، مجلة المشرق ، بيروت ، المجلد ٤١ ، السنة ١٩٤٧ ، ص ٥٧٥ - ٥٧٦ .

يمشي ويزجي مَوْجَهُ فكَأَنَّهُ
 لما انتهينا مايواري متَضَبُ
 وقد امتطينا زورقاً فيه فَقُلْ
 صُبْحُ تَمْشَى فِي سَنَاءِ غِيَهْبُ
 فتراه طَوْرًا طَائِراً وَلَسَرَبَمَا
 ضَمَّتْ جَنَاحَاهُ إِلَيْهِ فَيَجْنِبُ
 وَلَنَا شَبَاكُ قَدْ تَجَاذَبَ غَزْلَهَا
 خَدَّانِ يَطْفُو ذَا وَهَذَا يَرْسُبُ
 نُسِجَتْ كَنَسَجِ الدَّرْعِ لَكِنْ السَّرْدَى
 لَمْ يَغْدُ لِابْسَاسِهَا إِذَا مَا يَطْلُبُ
 تُبْدِي لَنَا سَمَكاً أَرَادَتْ أَنْ يُرَى
 حُسْنُ بِهَا فَلَأَجْلِهِ تَتَقَلَّبُ
 فكَأَنَّهَا مِنْ جَمْرَةِ الْمَاءِ الَّذِي
 حَصْبَاؤُهُ مِنْ صَفْوِهِ لَا يُخَجَّبُ
 يَا نَهْرَ شَقْرِ فَيْكَ أَدْرَكْتُ الْمُنَى
 فَلَأَنْتَ مِنْ نَهْرِ إِلَيَّ مُحَبَّبُ
 يَهْنِكَ إِذْ حُزَّتِ الْمَحَاسِنُ كُلُّهَا
 أَنِّي سَأَشْعُرُ فِي حَلَاحٍ وَأَخْطُبُ^(١٢٩)

ولم ينس شعراء جزيرة شقر بلدهم ومحاسنها إذا ما وقعت أنظارهم على أي
 مكان يماثلها أو يشاركها في محاسنها ، فها نحن نجد أبا المطرف أحمد بن عبدالله بن
 عميرة يصف نزهة في نهر إشبيلية صدر سنة ٦١٧ هـ باقتراح من ابن الأبار ، فيذكره

(١٢٩) ومن الامثلة على وصف النزهات في جزيرة شقر قول أبي جعفر أحمد بن طلحة من شعراء تلك الجزيرة :

يا هل ترى أطرف من يومنا قُلْدُ جَيْدُ الْأَفَقِ طُورُ الْعَفِيقِ
 وَأَنْطَلِقُ الْوُزُقُ بِمِيدَانِهَا مَطَرِيَّةُ كُلِّ قَضِيبٍ وَرِيقِ

(نفع الطيب ١٥٤/٤)

نهر إشبيلية في مده وجزره بنهر جزيرة شقر ، فيقول : (١٣٠)

يا حِمَصُ إِنَّكَ فِي الْبِلَادِ فَرِيدَةٌ
ببَدِيعِ حُسْنِ جَلٍّ عَنْ تَحْسِينِ
أَحِبِّ بِنَهْرِكَ حِينَ يَزْخَرُ مَدُّهُ
فَيُرَوِّقُ مِنْهُ تَحَرُّكُ كَسَكُونِ
وَيَعُودُهُ الْجَزْرُ الَّذِي يَبْقَى عَلَى
شَطِئِهِ حَجْرًا دُونَهُ لِلطَّيْنِ
مِثْلَ الْجَزِيرَةِ إِنْ تَقَلَّصَ ثَوْبُهَا
خَجَلَتْ لِشَيْنٍ تَحْتَهُ مَدْفُونِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ عَاشِقٌ ذُو زُفْرَةٍ
تَعْتَادُهُ فِي الْحَيْنِ بَعْدَ الْحَيْنِ

الخ

.....

وقد بلغ تعلق شعراء جزيرة شقر ببلدهم حداً جعلهم لا يطيقون صبرا عنها إذا ما كتب لهم فراقها طوعا أو كرها ، فصدرت عنهم قصائد في الحنين الى جزيرتهم تنبض بالحرارة وصدق العاطفة ورهافة الاحساس ، وتنم عن شغف بأرض جزيرة شقر لا يعادله شغف الى أي موطن آخر ، وأكثر شعر الحنين الى الجزيرة صادر عن شاعرها الأول ابن خفاجة الذي لم يكد يخرج منها الى الشمال الافريقي حتى أحس برغبة جامحة في العودة اليها ، وقبل أن يتمكن من الوصول اليها جادت قريحته بعدد من القصائد البديعة في الحنين الى بلده ، حيث ذكر محاسنها ومعالمها البديعة وذكرياته الماضية فيها ، وحنينه الجارف الى العودة الى أحضانها الدافئة ثانية وشكواه عن التغرب من الأهل والديار ، فمن ذلك قصيدة يتحدث فيها عن جزيرة شقر وإحاطة الوادي بها ويتشوق الى معالمها ويندب ماضي زمانه فيها : (١٣١)

(١٣٠) المقتضب من تحفة القادم ص ٥٧٤ .

(١٣١) ديوان ابن خفاجة ص ٣٦٤ - ٣٦٥ ، الروض المعبطار ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

بَيْنَ شُقَرٍ وَمُلْتَقَى نَهْرَيْهَا
 حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَا الْأَمَانِي عَصَاهَا
 وَتَغْنَى الْمُكَّاءِ فِي شَاطِئِهَا
 يَسْتَحِفُّ النِّهْيُ فَحَلَّتْ حَبَاهَا
 عَيْشَةً أَقْبَلَتْ شَهْيُ جَنَاهَا
 وَارْفُ ظِلُّهَا لَذِيذُ كَرَاهَا
 لَعِبَتْ بِالْعَقُولِ إِلَّا قَلِيلاً
 بَيْنَ تَأْوِيئِهَا وَبَيْنَ سُورَاهَا
 فَاتَّشَيْنَا مَعَ الْغُصُونِ غُصُونَا
 مَرَحاً فِي بَطَاحِهَا وَرُبَاهَا
 ثُمَّ وَلَّتْ كَأَنَّهَا لَمْ تَكُذْ تَلَبُّثُ
 إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا
 فَاذْدُبِ الْمَرْجَ فَالْكَنِيسَةَ فَالْشَطَّ
 وَقُلْ آوِ يَا مَعَاهِدُ آهَا
 آوِ مِنْ عُبْرَةٍ تَرْقُرُقُ بَثْأُ
 آوِ مِنْ رِخْلَةٍ تَطُولُ نُوَاهَا
 آهَ مِنْ فُرْقَةٍ لَغِيرِ تَلَاقِ
 آوِ مِنْ دَارٍ لَا يَجِيبُ صَدَاهَا
 لَسْتُ أَذْرِي وَمَذْمَعُ الْمُزْنِ رَطْبُ
 أَبْكَامَا صَبَابَةٌ أَوْ سَقَامَا
 فَتَعَالَى يَا عَيْنُ نَبْكِ عَلَيْهَا
 مِنْ حَيَاةٍ إِنْ كَانَ يُغْنِي بُكَامَا
 وَشَبَابٍ قَدْ فَاتَ إِلَّا تَنَاسِيهِ
 وَنَفْسٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا شَجَامَا
 خَلَّ عَيْنِي تَبْكِي عَلَيْهَا وَقَلْبِي
 يَسْتَمْنِي سَوَادُهُ لَوْ فَدَاهَا

ويظهر لي أن ابن خفاجة قد قال هذه الابيات بعد سقوط مدينة بلنسية وجزيرة
شُقْر في يد الكمبيطور سنة ٤٨٨ هـ .

وفي الحنين الى الجزيرة والتشوق لأرضها في أثناء سفره يقول ابن خفاجة : (١٣١)

أَجَبْتُ وَقَدْ نَادَى الْغَرَامُ فَأَسْمَعَا
عَشِيَّةَ غَنَانِي الْحَمَامُ فَرَجَعَا
فَقُلْتُ وَلِي دَمْعٌ تَرْقُرُقُ فَأَنهَمِي
يَسِيلُ وَصَبْرٌ قَدْ وَهِيَ فَتَضَعُضَا :
أَلَا هَلْ إِلَى أَرْضِ الْجَزِيرَةِ أُوْبَةٌ
فَأَسْكُنْ أَنْفَاساً وَأَهْدَأَ مَضْجَعَا
وَأَغْدُو بِوَادِيهَا وَقَدْ نَضَحَ النَّدَى
مِعَاطِفَ هَاتِيكَ الرَّبِّي ثُمَّ أَقْشَعَا
أَغَازِلُ فِيهَا لِلْغَزَالَةِ سَنَةٌ
تَحْطُّ الصَّبَا عَنْهَا مِنَ الْغَيْمِ بُرْقَعَا
وَقَدْ فَضَّ عَقْدَ الْقَطْرِ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ
نَسِيمٌ تَمْشِي بَيْنَهَا فَتَضَوَّعَا
وَبَاتَ سَقِيظُ الْبَطَلِ يَضْرِبُ سَرْحَةً
تَرْفُ بِوَادِيهَا وَيَنْفَحُ أَجْرَعَا
وَلِنْ تَنَأُ مِنْ دَارِ الْيَ حَبِيبَةٍ
وَحَسْبُكَ مَصْطَافَاً وَنَاهِيكَ مَرْبَعَا
فَقَدْ تَرَكْتَنِي بَيْنَ جَفْنِي جَفَا الْكُرَى
وَجَنْبِ تَقْلِي لَا يَلَائِمُ مَضْجَعَا
أَقْلَبُ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ لَعَلَّنِي
أَشِيمُ سَنَا بَرْقِي هُنَاكَ تَطْلَعَا
..... الخ

(١٣٢) ديوان ابن خفاجة ص ١٢٨ .

ومن هذا القبيل في التشوق الى الوطن قوله أيضا من قصيدة: (١٣٣)

فيا لَشْجاً صَدْرٍ من الصبرِ فارغٍ
ويا لقذى طَرَفٍ من الدَّمْعِ ملانٍ
ونفسٍ إلى جَوِّ الكنيسةِ صَبَّةٍ
وقَلْبٍ إلى أَفْقِ الجزيرةِ حَنانٍ
تَعَوَّضْتُ من واهاً بآءٍ ومن هوىٍ
بهوىٍ ومن إخوانٍ صِدْقٍ بِخَوَانٍ
وما كلُّ بيضاءٍ تروقُ بشحمةٍ
ولا كلُّ مرعىٍ تَرْتَعِيهِ بسعدانٍ
فيا ليتَ شعري هل لدهري عطفةٌ
فتجمع أوطاري عليّ وأوطساني
ميادينُ أوطاري وَمَغْهَدُ لَذَّتِي
ومنشأُ تَهَامِي وَمَلْعَبُ غَزْلَانِي
كأنَّ لم يَصِلْنِي فيه ظَنِّي يَقُومُ لي
لماءٌ وَصُدْغاهُ بِراحٍ وَرَيْحَانٍ
فسقياً لوادِيهم وإن كُنْتُ إِنَّمَا
أَبَيْتُ لذكراهُ بَغْلَةً ظُمَانٍ
فكم يومٍ لهوٍ قد أَدْرَنَّا بِأُفْقِهِ
نجومَ كُؤُوسٍ بَيْنَ أَقْمَارِ نُذْمَانٍ
ولِلْقُضْبِ والأَطْيَارِ مَلْهُىً بِجَزْعِهِ
فما شئتُ من رَقْصٍ على رَجْعِ أَلْحَانِ

ولابن خفاجة كثير من القصائد في هذا الغرض من الحنين الى الوطن ومعالمه
وذكرياته المختلفة فيه^(١٣٤) ، ولذلك قال عنه صاحب مطمح الأنفس إنه حينما «اشتعل

(١٣٣) المصدر نفسه ص ٣٤٥ .

(١٣٤) انظر أمثلة أخرى على ذلك في : قلائد العقيان ٢٧٣ ، الذخيرة م ٣ ق ٢ ص ٨٩٠ ، النخ ٥٥/٤ ، مطمح

الأنفس ص ٣٤٩ ، رايات المبرزين ص ١٢٣ .

رأسه شيبا ، وزرّت عليه الكهولة جيبا ، اقتصر على الحنين والشوق ، وقنع بأدنى تحية ، وما يستشعره بوصف تلك العهد من أريحية . . . » (١٣٥)

ومن الذين أكثروا من الحنين الى جزيرة شقر شاعرها وأديبها أبو المطرف بن عميرة ، وكان أكثر أسفارا من ابن خفاجة وأكثر تنقلا عن وطنه ، فمن ذلك قوله من قصيدة يتذكّر فيها مياه بلده ونسائمه وسكّانه وشوقه إلى ذلك كله . (١٣٦)

وللشّرق في قلبي لبانة عاشق
فيا لَيْتَ شِعْري من يبلّغها الشّرقا
ألا إنّ ماءً فيه ما كنتُ أشتكي
لهيب الحشى لو كنتُ يوماً به أسقى
وطيب نسيم لا يرى من أضله
سوى اليأس منه أو يرى ذلك الأفقا
فَمَنْ مُبْلِغٌ سَكَّانُهُ أَنَّ عَهْدَهُمْ
وَإِنْ هُمْ أَضَاعُوهُ عَلَى حِفْظِهِ أَبْقَى
سَلامٌ عَلَيْهِمْ كَيْفَ كَانُوا فَلِئَنَّهُمْ
وَإِنْ لَمْ يَرْقُوا لَا أزالُ لَهُمْ رِقا

ونلاحظ في كل ما قيل في التشوق والحنين الى جزيرة شقر أنه لا يغفل التغني بطبيعتها الساحرة وما تحتويه من أنهار وأشجار وبلايل ونسائم عاطرة وغير ذلك ، ونلاحظ هناك تمازجا بين الزمن المنصرم في حياة هؤلاء الشعراء وبين جزيرة شقر ، فاذا ما وصف الشعراء جزيرة شقر تحدثوا عن ذكرياتهم الماضية في جنباتها ، واذا ما ندبوا أيامهم الماضية وتأسفوا على شبابهم ذكروا جزيرة شقر التي كانت ساحاتها ومنتزهاتها وشطآنها ميدانا رحبا لذكريات الشباب ، وهذا التمازج بين أحاديث الماضي وذكريات الصبا والتعلق بالوطن واضح وجليّ في كثير من قصائد ابن خفاجة ، ففي سنة ٥١٠ هـ يخرج ابن خفاجة عن جزيرة شقر اضطرارا لا اختيارا ،

(١٣٥) مطلع الأنس ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(١٣٦) الذيل والتكملة / السفر الاول / القسم الاول / ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(*) يقصد شرق الاندلس (بلنسية وشقر وشاطبة . . .) .

ويحط رحاله في شاطبة - التي تقع على بعد ١٢ ميلا فقط جنوب جزيرة شقر - ويأتي عيد الفطر وهو في شاطبة ، وينشد ابن خفاجة قصيدة يهنئ بها أبا اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين في شاطبة ، يبدأها بندب ماضيه والتحرر على بلده فيقول : (١٣٧)

سجعتُ وقد غنى الحمام فرجعا
وما كنت لولا أن تغنى لأسجعا
وأندب عهداً بالمشقر سالفا
وظل غمام للصبا قد تقشعا
ولم أدر ما أبكي أرسم شبيبة
عفا أم مصيفا من سليمى ومربعا
وأوجع توديع الأحبة فرقة
شباب على رغم الأحبة ودعا
وما كان أشهى ذلك الليل مرقدا
وأندى محبا ذلك الصبح مطالعا
وأقصر ذاك العهد يوما وليلة
وأطيب ذاك العيش ظلا ومكرعا
زمان تقضى غير ذكرى معاهد
تسوم حصاة القلب أن تتصدعا
تحوّلت عنه لا اختياراً وربما
وجعت على طول التلدّد أخدعا
ومن لي ببرد الريح من أبرق الحمى
وربما الخزامى من أجارع لعلعا
وقد فات ذاك العهد إلا تذكرنا
لواني على ظهر المسطيّ توجعا

(١٣٧) ديوان ابن خفاجة ص ٥٦ ؛ فلاتد العقبان ص ٢٧٥ .

وكنْتَ جليدَ القلبِ والشملُ جامعُ
 فما انفضَّ حتى خار فارفضْ أدمعا
 وبلتْ نجادِي عبْرَةً مستهْلَةً
 أكفِكَفُ منها بالبنانِ تصنعا
 وإنِّي وعيني بالظلامِ كحيلَةٌ
 لأبى لجنبي أن يُلائمَ مضجعا
 وأكبرَ شانا أن أرى الصبحَ أبيضاً
 بعينٍ ترى رُبْعَ الشيبَةِ بُلُقعا
 كأنِّي لم أذهب مع اللّهُ ليلَةً
 ولم أتعاطِ البابلِي المُشْعِشعا
 ولم أتخايلَ بين ظلِّ لَسْرَحَةٍ
 وسجعٍ لغريدٍ وماءٍ بأجرعا
 ولم أزمِ آمالي بأزرقِ صائبٍ
 وأبيضِ بَسَامٍ وأشمرِ أضلعا

وفي الادب الاندلسي نصوص أدبية كثيرة ذات دلالات تاريخية ، اذ صدرت
 عن أصحابها نتيجة أحداث تاريخية بارزة مرّت بها جزيرة شقر ، بعضها متصل
 بالحوادث التي مرت بها الجزيرة زمن الطوائف ، وبعضها مرتبط بحوادث مرت بها
 تلك الجزيرة في أواخر عصر المرابطين ، وأكثرها شعر ونثر يندب جزيرة شقر اثر
 سقوطها في يد الاراغونيين أواخر سنة ٦٣٩ هـ .

وفي هذا الاطار نجد رسالة كتبها أبو عامر محمد بن الأصيلي ، من أدباء
 الاندلس في القرن الخامس الهجري ، إلى ذي الوزارتين أبي محمد بن أبي الفرج ،
 يُعرِّفُهُ فيها ما لقيه من رؤساء جزيرة شقر عند توجُّهه اليها^(١٣٨) ، وقد بدأها بأبيات منها :

(١٣٨) خريدة القصر للعماد الاصفهاني ٢/ ٢٤٣ - ٢٤٨ .

حَلَلْتُ الجزيرةَ سُحْقاً لها كأنِّي حللتُ بسرَدانية*
مُنِعْتُ الدخولَ إلى أهلِها فذُرْتُ كما دارتِ السانية
وبتُ ثلاثاً بها طاوياً قِراي هُمومي وأحزانيه
فَقُل لابن ذي النون** ما باله يولِّي الحصونَ بني الزانية
ومن قوله في هذه الرسالة ايضاً :

« ... الى أن وافيتُ الجزيرة ، وآمالي بها كثيرة ، ونزلت منها على مقدار
شأوي ، وقَدِّمتُ كتابك إلى الوزيرين الجليلين أبي جابر وابن طريف ، أكرم الله بهما
أعواد الكنيف وكان من برَّهما أني نزلت خلف السور أخزى نزول :
حتى اذا رمْتُ دخولاً أبْتُ نفْسُ أبي الحجاج لي بالدخول
راسلتهُ مستنزلاً داعياً فكاد أن يَقْطَعَ رأسَ الرسول
أكرمَ به من قائدٍ ماجدٍ يَصْلُحُ للحَرْثِ ورَعِي العُجول
ويقول فيها أيضاً من شعر :

قل لابن ذي النون الرئيس الذي
ليس له شيء من البَحْتِ
يا مالكا يجعل قُوداه
قوماً عدواً بالسلب واللفت
جاءوا الى الشرقِ جِباعاً فما
يُشْبِعُهُمْ شيءٌ من الشُّحْتِ

.....

لاجبر الله بني جابر
وزادَهُمْ مقتاً إلى مقت
وابن طريف لا رناً طرفه
في جسمه إلا إلى برت

(*) جزيرة في البحر المتوسط قبالة الساحل الشرقي للاندلس .

(**) هو القادر بن ذي النون الذي استولى على بلنسية وشاطبة وشقر بمساعدة الفونسو السادس سنة ٤٧٨ هـ (انظر الصفحات السابقة عن تاريخ جزيرة شقر) .

ان تأتيه في حاجة يعتذر
عذر يهود غداة السبت

وتأتي قيمة هذه الرسالة من ندرة المعلومات التي تتحدث عن جزيرة شقر في أيام استيلاء القادر بن ذي النون عليها ، فهي على ذلك تلقي بعض الاضواء - وان كانت باهتة - على فصل من تاريخ تلك الجزيرة .

وعندما ثارت جزيرة شقر - بزعامه أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي - في سنة ٥٦٦ هـ على محمد بن سعد بن مردنیش ، وتعرضت على إثر ذلك للحصار الشديد من قبل محمد بن مردنیش وأخيه أبي الحجاج يوسف ، كتب أبو المطرف محمد بن أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي ، قصيدة استنجد وجهها الى الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يستصرخه لاستنقاذ الجزيرة من بني مردنیش يقول فيها : (١٣٩)

تدارك أمير المسلمين دماءنا
فإنك للإسلام والدين ناصر
ووجه إلى استنقاذنا بكتيبة
يهاب الردى منها العدو المحاصر
تنفس من ضيق الخناق بقطرنا
فتذكر آمال وتزعى أواصر
إذا ما انكفى بالخزي وارتد خائباً
فمطمحة عن نيلها متقاصر
فليت ابن سعيد إذ تألف مانعت
فلم تتمخض عن قواه العناصر
سذهب أنوار الخلافة ظلّمه
وتلفظه بعد الخيول المقاصر
ويهدم ما قد أسس الكفر عنده
كريم السنا تثنى عليه الخناصر

(١٣٩) الحلة السراء ٢/ ٢٦٩ .

فهذا الذي يَئني المَساجِدَ أَمْرُهُ
وأمرُ ابنِ سَعْدٍ أَنْ تُشَادَ المَعاصِرُ
وذا المَلِكُ آياتُ المِثاني تَهْزُهُ
وذاك بأصواتِ المِثاني البَناصِرُ
بقيتَ أميرَ المؤمنينَ مَخْلُداً
وكلَّ الوري عن كُنْهِ وَضْفِكَ قاصِرُ

وعندما سقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩ هـ بيد الاراغونيين ، خلف سقوطها في قلوب أدبائها حزناً عظيماً وألما بالغاً خلدوه في نصوص شعرية ونثرية رفيعة تنبض بالاسى والحسرة على فراقها وما آلت اليه ، وبكوها بكاء مريراً ، وكان أدبهم فيها من أبلغ الادب الذي قيل في بكاء المدن وراثتها ، وقد كتب أبو المطرف بن عميرة - الذي شهد سقوط تلك الجزيرة - رسالة الى صديقه ابن الأبار القضاعي البلنسي ، ينعى له فيها بلنسية وجزيرة شقر ، ويقول في فصل منها :^(١٤٠)

« ... ثم زحفت كتيبة الكفر بزُرْقِها وشُقْرِها ، حتى أحاطت بجزيرة شقرها ، فآه لمسقط الرأس هوى نجمُهُ ، ولفادح الخطب سرى كلمه ، ويا لجنة أجرى الله النهر تحتها ، وروضة أجاد أبو اسحق* نعتها ، وإنما كانت داره التي فيها دب ، وعلى أوصاف محاسنها أكب ، وفيها أته منيته كما شاء وأحب ، ولم تعدم بعده محبين قشبيهم إليها ساقوه ، ودمعهم عليها أراقوه ... » .

ويضمن ابن عميرة رسالته هذه قصيدة في رثاء شقر ، يتألم فيها لما أصاب الجزيرة مازجا هذا الالم بالحنين والتشوق لمعالمها وذكرياته فيها ورحلات الصيد التي كان يقوم بها في واديهما فيقول :^(١٤١)

أَقِلُّوا ملامي أو فقولوا وأكثروا
ملوكم عما به ليس يُقْصِرُ

(١٤٠) الروض الممطر ص ٩٨ ، نفح الطيب ٤ / ٤٩٣ .

(*) ابن خفاجة .

(١٤١) نفح الطيب ٤ / ٤٩٣ - ٤٩٥ .

وهل غير صب ما تني عبراته
إذا صعدت أنفاسه تتحدر
يحن وما يجدى عليه حنينه
إلى أربع معروفها متنكر
ويندب عهدا بالمشقر فاللوى
وأين اللوى منه وأين المشقر
تغير ذاك العهد بعدي وأهله
ومن ذا على الأيام لا يتغير
وأقفر رسم الدار إلا بقية
لسائلها عن مثل حالي تخبر
فلم تبقى إلا زفرة إثر زفرة
ضلوعي لها تنقذ أو تنفطر
وإلا اشتياق لا يزال يهزني
فلا غاية تدنو ولا هو يفتر
أقول لساري البرق في جُرح ليلة
كلانا بها قد بات يبكي ويشهر
تعرض مجتازا فكان مذكرا
بعهد اللوى والشيء بالشيء يُذكر
أنأوي لقلب مثل قلبك خافق
ودمع سفوح مثل قطرك يقطر
وتحمل أنفاسا كومضك نارها
إذا رفعت تبدو لمن يتنور
يقر بعيني أن أعين من نأى
لما أبصرته منك عيناى تبصر
وأن يتراءاك الخليط الذين هم
بقلبي وإن غابوا عن العين حُضر

كفى حَزْنَا أَنَا كَاهِلٍ مُحْصَبٍ
 بِكُلِّ طَرِيقٍ قَدْ نَفَرْنَا وَنَثَفَر
 وَأَنْ كَلِينَا مِنْ مَشُوقٍ وَشَائِقٍ
 بِنَارٍ اغْتَرَابٍ فِي حِشَاهِ تَسْعَر
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْأَمَانِي ضَلَّةٌ
 وَقَوْلِي أَلَا يَأَلَيْتَ شِعْرِي تَحِيرُ
 هَلِ النَّهْرُ عَقْدٌ لِلْجَزِيرَةِ مِثْلَمَا
 عَهَدْنَا وَهَلِ حَصْبَاؤُهُ وَهِيَ جَوْهَرُ
 وَهَلِ لِلصَّبَا ذَيْلٌ عَلَيْهِ تَجْرُهُ
 فَيَزُورُ عَنْهُ مَوْجُهُ الْمَتَكْسِرُ
 وَتِلْكَ الْمَغَانِي هَلِ عَلَيْهَا طَلَاوَةٌ
 بِمَا رَاقَ مِنْهَا أَوْ بِمَا رَقَّ تَسْحَرُ
 مَلَاعِبُ أَفْرَاسِ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا
 تَرُوحُ إِلَيْهَا تَارَةً وَتَبْكَرُ
 وَقَبْلِي ذَاكَ النَّهْرِ كَانَتْ مَعَاهِدُ
 بِهَا الْعَيْشُ مَطْلُولُ الْخَمِيلَةِ أَخْضَرُ
 بَحِثْ بِيَاضَ الصَّبْحِ أَزْرَارُ جِيهِهِ
 تَطِيبُ وَأَزْدَانُ النَّسِيمِ تَعْطُرُ
 لَيَالٍ بِمَاءِ الْوَرْدِ يَنْفَحُ ثَوْبَهَا
 وَطِيبُ هَوَاءٍ فِيهِ مِسْكٌ وَعَنْبَرُ
 وَبِالْجَبَلِ الْأَدْنَى هُنَاكَ خُطَى لَنَا
 إِلَى اللَّهِ لَا تَكْبُرُ وَلَا تَسْتَعْثِرُ
 جَنَابُ بَاعِلَاهِ بَهَارٌ وَنَرْجِسُ
 فَأَبْيَضُ مَفْتَرُ الثَّنَائِيَا وَأَصْفَرُ
 وَمُورِدُنَا فِي قَلْبٍ قَلْبٍ كَمَقْلَةٍ
 حَذَارَا عَلَيْنَا مِنْ قَذَى الْعَيْنِ تَسْتَرُ

وكم قَدْ مَبْطُنَا القَاعَ ندعر وحشه
 ويا حُسْنَهُ مستقبلاً حين يدعر
 نقود إليه طائعا كل جارج
 له مِنْخَرُ رَحْبٌ وَخَضِرُ مُضْمَرُ
 إذا مَارَمَيْنَاهُ بِهِ عَبَثَتْ بِهِ
 مؤَلَّةُ الأطرافِ عنهن تكشر
 تضم لأروى النيق حزان سهلها
 وقد فُقِدَتْ فيها مهأة وجوذر
 كذاك إلى أن صاح بالقوم صائح
 وأنذَرَ بالبَّينِ المُشْتَبِ مُنْذِرُ
 وفرَقَهُمْ أيدي سَبا وأصابَهُمْ
 على غَرَّةٍ مِنْهُمْ قضاءً مقدرُ
 وقد أجاب ابنُ الأَبَارِ عن تلك الرسالة برسالةٍ أخرى مماثلة ، ووجهها إلى
 صديقه ابن عميرة ومن فصول هذه الرسالة :
 « ... ثم لم يلبث داء عقرها أن دبَّ الى جزيرة شقرها ، فأمرَّ عذبتها النмир ،
 وذوى غصنها النضير ، وخرست حمائم أدواجها ، وركدت نسائم
 أرواحها ... » (١٢٢) .

ولابي المطرف بن عميرة في رثاء جزيرة شقر شعر كثير يكشف في معظمه عن
 حزن وحنين وتشوق وحسرة ، فمن ذلك قوله من قصيدة كتب بها الى صديقه أبي عبد
 الله بن محمد بن الجنان المرسى : (١٢٣)

تَذَكَّرَ عَهْدَ الشَّرْقِ وَالشَّرْقُ شَايِعٌ
 وَذَابَ أَسَى لِّلْبَرْقِ وَالْبَرْقُ لَامِعٌ
 وَاتَّبَعَ ذِكْرَ الْجِزْعِ أَنَّهُ مُوجِعٌ
 لَهُ أَبَدًا قَلْبٌ عَلَى الْجِزْعِ جَارِعٌ

(١٢٢) الروض المعطار ص ١٠٠ ، نفع الطيب ٤/ ٤٩٨ .

(١٢٣) الذيل والتكملة / السفر الاول / القسم الاول / ص ١٧٣ ، الروض المعطار ص ٣٥٠ .

كفى حَزناً نأْيُ عن الأهلِ بعدما
نأينا عن الأوطانِ فهيَ بِلَاقِعُ
نسوى غربةً حتى بمنزلِ غُرْبَةٍ
لقد صَنَعَ البينُ الذي هُوَ صَانِعُ
أَجَنُّ إلى أرضٍ تَقَادَمَ عهدُها
وَمِنْ دونها أيدي الخطوبِ المَوَانِعُ
وكيفَ بشُقْرِ أو بزُرْقَةٍ مائه
وفيه لشُقْرِ أو لزُرْقٍ مَشَارِعُ*
وله أيضاً قصيدة أخرى يصف فيها حال جزيرة شقر بعد سقوطها .
يقول في أبيات منها : (١٤٤)

وعاد قلبي من شَرْقٍ أندلسِ
عيدُ أسَى فتته وما فتر
فأينَ منّا منازلُ عَصَفَتْ
ريحُ عليها من العِدا صَرَصَر
ودونَ شُقْرِ ودونَ زُرْقَتِهِ
أزرقُ يَحْكِي قسناه أو أَشْقَرُ
والرومُ حربٌ لنا وهم وشلُّ
سالمه الواردون فاستَبَحَر
إنّا لنَرْجو للدهرِ فيئةَ مَنْ
أنابَ ممّا جناه وأستَغْفَرُ
ونرْقُبُ الكُرَّةَ التي أبداً
بها على الرومِ لم نَزَلْ نُخْبَرُ

(*) الشقر والزرق في الشطر الثاني من البيت الأخير إشارة إلى الأراغونيين .
(١٤٤) الروض المعطار ص ٣٥٠ ، أبو المطرف بن عميرة حياته وأدبه ص ٢٣٢ نقلا عن رسائل أبي المطرف المخطوطة .

ومثلما يقوم رثاء الاشخاص على ذكر محاسنهم ومآثرهم ، فكذلك يشتمل رثاء المدن على ذكر محاسن المدينة التي تؤول الى السقوط ، ولذلك نجد جميع النصوص الشعرية والنثرية التي قيلت في رثاء جزيرة شقر ، حافلة بوصف محاسن تلك الجزيرة ومعالمها وبخاصة وصف طبيعتها الجميلة وما اشتملت عليه من أنهار لآلاء ونسائم عطرة ومنازل كانت مربعا للهو والانطلاق ، وحدائق زاخرة بالورود والرياحين ، وبطاح كانت ميدانا للصيد والقنص ، وحمائم وطيور لا تكف عن الغناء والطرب ، ولا يخلو نص من هذه النصوص من مقارنة بين حال الجزيرة قبل سقوطها وحالها بعد السقوط ، أو مقارنة بين حال أهلها قبل رحيلهم عنها وبعد الرحيل ، مثلما لا تخلو هذه النصوص من وصف ما يحس به أصحابها من ألم وأسى لما أصاب الجزيرة ومن وجد وشوق لأيامها الخوالي .

* * *

= خاتمة =

تلك هي جزيرة شقر الاندلسية ، كانت موضع اعجاب الجغرافيين ، ومستراح المتنزهين ، ومحط رحال المصطافين والمتربعين ، ومتعلق قلوب الشعراء والادباء من أبنائها المخلصين ، وموضوع كثير من القصائد ، كانت ميدان صراع بين الاسبان والمسلمين ، وكان في نهرها مجال رحب للترفة وصيد الاسماك ، وكان لشواطئها جمال بارع ، ولبساتينها سحر فائق يجذب إليه عشاق الحياة حيث يختلط الحب بالشعر والنسائم وتغريد الطيور ، وكانت بواديهما مكانا لرحلات الصيد . . . وكانت طبيعتها من أجمل ما وهب لأرض الاندلس ، مما جعل أبنائها يتعلقون بها ويهيمنون بمحاسنها ، ويرونها جنة الخلد ، فخلدوها في ذكرياتهم وفي أدبهم الذي رقّ برقة أهل تلك الجزيرة وطبيعتها .

وفي جزيرة شقر اليوم من آثار المسلمين بقايا حصن قديم فقط ، لكنها لم تزل من أجمل بقاع اسبانيا ويزرع فيها البرتقال والنخيل والأرز وغيرها ، ويبلغ عدد سكانها حسب احصائية ١٩٨٥ واحدا وأربعين ألفا .

غير أن واحدا من فرعي نهر شقر المحيطين بالجزيرة هو في هذه الايام نهر جاف ، وتسقى مزارعها بقناة يعود تاريخها الى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي .